مراتب
العقل والدين

عبد الغني العمري

طبعة : 2009/1430 : طبعة مصححة.

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.

رقم الإيداع القانوني : 1020 / 2000.

مقدمـــــــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصـــلاة والســـلام على سيـــدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه، وكل عباد الله الصالحين.

وبعد، إن ما يتميز به عصرنا عن سالـــفه من العصور، احتكـــاك الأمم المختلفة والشعوب المتباينـــة فيمـــا بينها، احتكاكا لم يسبق له مثيل، بسبـــب وسائل التواصل والإعلام التي قلصت المسافات و سهـــلت الاطلاع على المعلومات الكثيرة في أقل الأوقات. مما جعـــل كل أمة ملزمة أن تبـــني لنفسها صرحا من المقومـــــات على أســـاس متين، في جمـــيع المجالات والميادين، إن كانت لا تريد أن تداس بالأقـــدام ويفوتهـــا الركـــب المسرع في خطاه مع كل دقائق الزمان.

وأمتنا الإسلامية، وهي إحدى هذه الأمم، أولى من غيرها أن تقوم بذلك، لأن لها سندا إلهيا لا يبارى وهـــديا نبويا لا يجارى، من دون أخواتها في الإنسانية. لها الوحي الذي بيّن لها ما تفعل وكيف تفعـــل. مـــن أيـــن تـــبدأ وإلى أين تنتهي. فما عليها حياله إلا أن تنهل من معينه العذب. ولها فيه غُنية عن سواه من بنات أفكار البشر إن هي تفطنت.

غير أن أمتنا على العموم، أصيبت بالوهن ـــ مؤقتا ـــ الذي ترجع أسبابه من جهة، إلى عدم التزامها بدينها التزاما يفتح لها أبـــواب كنوزها؛ ومن جهة أخرى إلى التشكيك الذي تتعرض له في هذا الـــدين عينـــه. إمـــا من قِبَل أعدائـــها الأجانب عنها، أو ممن تأثـــروا بهؤلاء من أبنائها.

ومما يلاحظ من خلال ما يروجه هؤلاء وأولئك من أغاليط وأباطيل، أنهم يتخذون العقل والعقلانية وســـيلة لإقناع الأمة، سالكين في ذلك سبـــلا من الفكر قد تشتبه على من لا يحسن النظر فيها.

فصار البعض يدعو إلى تجاوز للدين، ذلك أنه عنده من نتاج البشر في حقبة معينة من الزمـــان لظـــروف معينة، كان العقل البشري لا يزال فيها في مرحلة الطفولة التاريخية، وبما أنه الآن فـــي زعمهـــم قـــد قطـــع أشواطا كبيرة ، صار لزاما عليه، تماشيا مع مبلغ رشده، أن يلـــقي بالدين في ذاكرة التاريخ متمـــسكا بالعقـــل الذي يمكّنه من استكشاف غياهب المستقبل الذي لا تلوح له نهاية في أفقهم.

ولنفصح عنها بصراحة: صاروا يستحيون من التدين وإظهار ذلك أمام هذا العقل الوقح الذي لا يرحم مـــن لا يحسن الدفاع عن نفسه.

فنتج عند البعض تدين خجول، يقر للـــعقل بسيادته المطلـــقة أو شبه المطلقة، ويستسمحه في أن يمُنّ عليـــه بأويقات يمارس فيها شعائر صارت عنده غالبا تراثا محترما مدرجا ضمن المقدسات التـــي يجـــب الحـــــفاظ عليها، تلك المقدسات التي صارت دائرتها تتسع يوما عن يـــوم، حتى صار منها ما هو أممـــي أو قـــومي أو وطني. من هذه المقدسات ما هو فرائض، سميت باصطلاحهم حقوقا، كحقوق الجماعـــات وحقـــوق الإنـــسان الفرد (إنسانهم) بأركانها المتعلقة بالمرأة والطفل وغيرهـــما (ما لم يكونا مسلمين)، ومنها نوافـــل كالأيـــام المنظمة للاحتفال والاحتفاء بهذه البدعة أو تلك، وهذا اليوم أوذاك، كيوم الأم ويوم المـــسرح وغيرهمـــا مـــن الأيام؛ ومستحبات كالمؤتمرات العالمية أو القارية التي تسن السنن وتبين بيان تفصيل ما سبق أن شرعت.

إنه شرع " العولمة " الذي نزل به العقل المتقدم حســـب قولهم ...هذه العولمة التي لن تكون اقتصادية فقط، على ما يبدو !

فمن آمن فهو عاقل، ومن كفر فهو متخلف جاهل.

وبما أن هذا العقل عندهم عليم خبير، بدأ ينظر في الدين (التراث) نظرة مُراجع ومصحح، حتى يجد لـــه حلة جديدة مفصلة على القياس العصري حسب أحدث صيحات الموضة الفكرية.

من ذلك: أن إلزام العقل بالدين ظلم له وتقييد، وأن العفة آثار لعقد نفسية علينا التخلص منهـــا، وأن ستـــــر المرأة جسدها ظلم لها واستنـــقاص من إنسانيتها، والرجوع إلى حكم الله في الأشياء ظلمانية يجـــب التحـــرر منها. وليتهم أفصحوا وقالوا: يا أيها الناس اكفروا بما كنتم عليه، وآمنـــوا بما جئناكم به، ربما لتنبه الـــبعض منا إلى خطورة الوضع، ولكنهم حاوروا وداوروا. وما هـــذه إلا البداية !... كل هذا باسم " السيـــد العقـــل"، والمسلمون غافلون عن أســـباب قوتهم ، يحاولون مجابهة الأعاصـــير بحولهم وقوتهم. والخـــصم المـــتعقلن يفاخرهم بمنـــجزاته التكنولوجـــية وأسلحته النووية واكتشافاته الجينية، وكأنها معجزات شرعه.

والمسلم حائر، أيجابه كل ذلك بالدين ؟! بالوحي!

أحَياءً من " السيد العقل" أم خوفا؟... هذا التخاذل!

ووالله لو رضي المرء بالحمق مع تمسك بالدين عن إيمان ويقين، لكان أعز له وأكرم! ولـــو وثـــق بربـــه وتمسك بحبله، لكان له أنجى وأسلم.

وتوضيحا للأمر واجتلاء له، ارتأينا تأليف هذا الكتاب، راجين من الله أن يسددنا فيه على الحق، وأن يؤيدنا فيه بعونه وقوته، راغبـــين في رفع اللبس الذي يحيط بالعقل، جاعلين الكلام فيه على ثلاثة أبواب:

أولها: العقل المجرد.

ثانيها: العقل المعضد.

ثالثها: مثبطات العقل لدى الأمة.

سائلين الله تعالى القبول، والنفـــع للكاتب والقارئ، إنه أهل الفضل والكرم.

والله المستعان.

جرادة، في *ليلة الخميس الفاتح من المحرم لسنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف للهجرة الشريفة* ــ ***2000*** م.

تـــمـــهـــــيد

في أثناء تناولنا للعقل بجميع مراتبه، سـيلاحظ القارئ أننا لا نحذو في ذلـك حـذو مـن تعـرض لهـذا الموضوع بالاستـناد إلى ما تعـارف عليه معاصرونا، برجوعهم غالبا إلى علماء الغرب الذين لا ينطلقـون من نفس منطلقنا، متأثرين في ذلك ببيئة غير بيئتنا وملة غير ملتنا.

من ذلك: العقل عند غيرنا لا يتصل بالدين، بل ولا يجب أن يتصل به، خلافا لما هـو الأمـر عليـه فـي الحقيقة.

ومن ذلك: النفس. فهي عند علماء النفس، تعني مجال دراسة البواعث ومختلف السلوكات المترتبـة عنهـا، والآثار الناجمة عنها، بينما هي عندنا تعني العقل من حيث ما هوعقل، لكن باعتبار خاص سنبينه من خـلال هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ثم إننا في خلال هذا العرض، سنتجاوز بعض المصطلحات الوضعـية التي نراها بعيدة في دلالتهـا عـن المعنى الذي نرمي إليه، مستعيضين في ذلك بما يؤدي المعنى من الكلمات.

وبما أننا نتوخى معرفـة الحقائق المرتبطة بالعقل، فإننـا لن نُغرق في التعابير المتـشعبة مـا اسـتطعنا، محاولين مباشرة المعاني بلغة هي أقرب ما تكون إلى البساطة والوضوح، ونعني بهما: النفاذ.

لذلك نرجو من القارئ، أن لا يقيس كل ما نكتبه على ما سبق أن اطلع عليه عند غيرنـا، إلا إذا توصـل إلى إدراك المعاني التي نقصدها على الوجه الذي نريده. كما نشير إلى أن استعراضنا لمراتب العقل، سـيكون وسطا بين الاختصار والتطويل، إذ لو أردنا استقصاء أغلب التفاصيل المندرجة ضمن دائرة العقـل، لاحتـاج ذلك إلى أجزاء عديدة، ونحن نريد فقط ــ من خلال هذا العمل ــ أن ننبه القارئ إلى الموضـوع، وأن نثيـر فيه الرغبة في استكشـاف آفاق العقل بنفسـه، لأنه لا يفيـد في هذا الاستكشاف غير ذلك.

والله الموفـق.

الباب الأول

العقل المجرد

الفصل الأول

تعريف العقل

1 . العــقل لــغــة واصــطــلاحا:

ا ــ العقل لغة:

يرجع معنى " عقل " في الغالب إلى: فهم، أمسك، حبس، شد. واســم الفاعل منه عاقل، ومصدره عقْل .

ب ــ العقل اصطلاحا :

هو القوة المدركة من الإنسان، به يدرك الأشياء ويميزها على تفاوت بين الأشخاص في هذه القوة: فمــنهم عاقل ومنهم أعقل. والعقل على التحقيق هو: باطن الإنسان وغيبه الذي نشهد أثره ولا نشهــده، وهــو الــذي يُكسب الإنسان صفته الإنسانية من بيــن باقي المخلوقــات على الأرض، وهــو المخاطَــب والمكلــف مــن الإنسان، والمتحكم والموجه لســائر أعضاء هذا الإنسان.

2 . مآخذ العقل:

أولا: الحواس:

إننا لنجد من أوضح معاني الــعقل: الحبس والتقييد، إذ إن الــعقل عند إدراكه الكون، إنما يقتــبس عينــات مقيدة يضبطها عبر حواسه، ولا يمكنه إدراك كل الموجودات على الإجمال.

فالعقل عبر الحواس، وهي أولى مآخذه، إنما يدرك بالعين مثلا، ما يدخل تحت إحاطتها، ويغيب عنــه مــا يخرج عن تلك الإحاطة. ولذلك فهــو لا يدرك عظائم المخلوقات كالسماء أو البحر على العموم، كما تغيــب عنه في مقابل ذلك دقائق المخلوقات وصغارها كالخلايا أو الذرات. فهــو إذن، لا يــتمكن مــن إدراك كــل المبصرات بالعين، وإنما يدرك جزءا معينا من تلك المبصرات؛ كما يدرك بواسطة الأذن مجــالا معينا مــن الأصــوات ويغيب عنــه منها ما يخرج عن هذا الإدراك، ممــا هو أعلى من ذلك المجال أو أدنى.

وقس على هذا باقي الحواس، من شم وذوق ولمس.

بل إن مدارك العقل نفسها، تختلف باختلاف الأشخاص، كأن تجد شخصا يستطيع إبــصار مــا لا يبــصره غيره، أو أن يسمع ما لا يتمكن من سماعه غيره. بل قد يتعدى اختلاف هذه المدارك حدود الإنــســان إلــى

الحيوان، الذي يشترك معه في هــذا المأخذ الأول للعقل: فتجد حيوانــا ما، يدرك بحاسة من حواســه مــا لا يدركه الإنسان بنفس تلك الحاسة.

وعلى هذا، فإن المعنى اللغوي للعقل الذي يفيد التقييد، يصدُق على عقل الإنسان بــصفته قــوة إدراك مــن حيث هذا المأخذ.

ثانيا: الفكر:

التفكر عملية يتميز بها الإنس والجن عن بقية المخلوقات. وهي من أحب الأعمال إلى العقول والعقــلاء، إذ تعطيهم لذة عظيمة أثناء تصــرفهم في المعلومات، تصرف السيد في عبيده، والمَلك في مملكته.

قد تسبب هذه اللذة الناتجة عن التفكر إدمانا لصاحبها، وقد تجعله شديد التعصب لهــا، بــل وقــد تــسترقّه وتصيّره عبدا لها، لا يستطيع الخــلاص منــها.

وكما أن العقل مقيد من حيث المأخذ الأول الذي هو الحواس، فإنه مقيد كذلك من حيث الفكر، كمــا ســنبين ذلك إن شاء الله، عند بسط هذه العملية بالتفصيل. ونكتفي هنا بضرب أمثلة على التقيّد:

ــ إن العقل من حيث الفكر قد يقع في الغلط، فتجد أن ما توصل به عقل ما إلى نتيجة ما، يتوصل بــه عقــل آخر إلى نتيجة أخرى مغايرة، فيكون أحد العقلين بهذا غالطا، إن لم يكونا معا، ويكون الغلط بالتــالي، نقــصا في احتمالات الصواب، مما يعطي للعقل محدودية كما تقدم.

ــ إن عملية التفكر لا تفيد كثيرا فيما وراء الحس (المعاني التي وراء الحس)، فتجد العقل هنا لا يكاد يضبط ما يتفكر فيه، فتكون بذلك أغلب نتائجه مظنونة.

ــ إن لعملية التفكر ضوابط وشروطا تحكمها ، قد لا يحسن الالتزام بها كل عقل، أو قد لا تتوفر لديه، فيكون الفكر مختلا بقدر عدم إحكام تلك الضوابط والشروط، أو عدم توفرها. فيغيب عن العقل مــن النتــائج مــا يتناسب وهذا الاختلال .

ثالثا : المأخذ الثالث :

سنعرض له في الباب الثاني من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

3 . أسماء العقل:

ا ــ التسميات المختلفة للعقل:

يتبين من خلال ما سبق، أن العقل الذي تناولناه، غير مؤهل لأن يُعتمد عليه بالكلية في جميــع مــا يريــد الإنسان إدراكه على الحقيقة؛ لذلك وجب الكلام على آفاق العقل المختلفة وبيان خصوصية كل أفق منها.

وفي البداية يلزمنا رفع اللبس الذي يحيط بالعقل من حيث تسميات

تطلق عليه كمرادفات أو تنسب إليه كصفات، وهي: النفس والقلب والروح.

فنقول مستعينين بالله:

إن هذه الأسماء في الحقيقة تدل على مسمى واحد، غير أن هذا المسمى له اعتبارات مختلفة تجعل الناظر إليه باعتبار ما، يسميه باسم لا يسميه به إذا نظر إليه باعتبار آخر. وإننا نجد أقربها إلى الدلالة على حقيقته وخاصيته الكبرى: القلب. ذلك أن تسمية القلب من التقلب، ومن ضمن التقلب، التقلب في الأسماء المختلفة. فهو تارة قلب وتارة نفس وأخرى عقل أو روح.

ب ــ الاعتبارات الحاكمة على العقل:

إن حقيقة الإنسان المستوية على التمام بين طرفي النقيض من وجود وعدم، ونور وظلمة، تعطيه تسمية القلب لأنه في كمال قابليته للأمرين معا. وميل القلب عن درجة الاعتدال تلك، إلى أحد الجانبين دون الآخر، يخرجه عن قلبيته ويجعله:

ــ إن غلبت عليه الظلمة وأحكام العدم، يصير نفسا بهذا الاعتبار.

ــ وإن غلب عليه النور وأحكام الوجود، يصير روحا بهذا الاعتبار.

وهو عقل على كل حال. بمعنى إضافة الإدراك إليه بصرف النظر عن كونه مخطئا أو مصيبا في هذا الإدراك.

وقد نجد هذه التسميات التي ذكرناها موصوفة بصفات قد تخرجها عن الحد الأصلي لها، حسب الاعتبارات المذكورة آنفا: كأن نسمع عن القلب المقفل، فمعناه أنه مقفل عن النور، فهو هنا إذن نفس؛ أو كأن نسمع عن النفس المطمئنة، فهي هنا روح.

إن علمت هذا، فإنك ستجد لهذه الحقيقة القلبية مرتبتين تفصيليتين بين النفس والقلب، وبين القلب والروح، وذلك حسب نزول هذه الحقيقة في تينك المنزلتين، تستلزمان (أي المرتبتان) تسميتين أخريين هما: الفؤاد والصدر.

وإن عرفت ماذا نقصد بالتسميات، فقل كما شئت وعبر بما تراه مناسبا.

الفـــصـــل الـــثـــاني

العـــقـــل المـــجـــرد

1 . صورة مبسطة:

لقد وجـــد الإنسان نفسه بعد أن لم يكـــن (الإنسان هنا بالمعنى العـــام الافتراضي و ليس آدم)، وجد نفسه مدرِكا لنفسه، وســـط مخلوقات قد تشبهه من أوجه و تمتاز عنه من أوجـــه أخرى، بـــين سمـــــاء وأرض، يتعاقب عليه ليل ونهار، تتراوحه أحوال متباينة ، ملائمة لأغـــراضه تارة، وغير ملائمة أخرى؛ ووجد مـــن نفسه انجذابا إلى أشياء حسب هذه الأغراض، ونفورا من أشياء أخرى، كما وجد من نفسه قوة تـــسعفه علـــى التصرف في نفسه أو في غيره من الموجودات، تبعا لما يعطيه إدراكه. غير أن ذلك لم يكن له دائمـــا علـــى التمام: فقد لاحظ أن الأشياء قد تنصاع له حينا، وتستعصي عليه آخر: وذلك كتوفر مصادر الأكل له مثـــــلا في زمان دون زمان أو في مكان دون مكان ، أومناسبة نوع من المأكولات له في حال دون حـــال؛ فاحتـــار الإنسان في نفسه: أهو سيد الوجود، بحيث يكون ما سواه عبيدا مسخرين له يتصرف فيهم كما يشاء ؟ ...فـــلا يـــجب أن يستعصي عليه شيء، ولا أن يخالف إرادته شيء ! أم هو مسخر مثل غيره، لا يملك مـــن أمـــره شيئا؟ فلمن هو مسخر، ولم هو مسخر؟ ...

ولماذا يجد من نفسه بعض قدرة وبعض تحكم في مقابل ذلك؟

فصار الإنسان يتوق إلى الوصول إلى حل هذا اللغز الكبير، واستعمل في ذلك كل قواه الحسية منها والعقلية ، فشرع يرتب معلوماته ويصنفها ، ثم يركبها تركيبا خاصا ينتج له معلومات جديدة، وصار إدراكـــه يتطـــور شيئا فشيئا ويتوسع مع مرور الزمن ، فظن أنه يقترب من الحل، حل اللغز الذي يحيره.

وإلى جانب تعطشه إلى العلم بحقيقة الأمر، أو قل قبله، كان الإنسان يتحرك حسيا ومعنويا في هذا الوجـــود بدافع حافزين اثنين، هما:

ـــ دفع الضرر.

ـــ وجلب المنفعة.

وكلاهما يندرج تحت معنى واحد هو: المحافظة على بقاء النفس.

فمن قبيل دفع الضرر: احتماؤه من الحر والقر، واتقاؤه من الحيوانات التي تكون خطرا على حياتـــه، إلـــى غير ذلك من المضار.

ومن قبيل جلب المنفعة: توفير المأكل والمشرب للإبقاء على حياته وقوته، والبحث عن سبل تنمية مداركـــه، إلى غير ذلك من المنافع.

لكن من حقق النظر، يجد أن جلب المنفعة يعود في الأصل إلى دفع الضرر، فتوفير المأكل والمشرب مثلا، إنما هو في الأصل لدفع ضرر الجوع والعطش في المرتبة الأولى، ثم دفع ضرر الموت في المرتبة الثانيـــة، وهكذا في كل أمر على التفصيل. غير أن إدراك هذا الأمر على سبيل التحقيق، ليس في مقدرة العقل في هـــذا الطور.

كما يلاحظ أن النتائج لم تكن دائما موافقة لإرادة الإنسان في هذا المجال: فهو من حيث يريد دفع الـــضرر، قد يقع فيه؛ ومن حيث يريد جلب النفع، قد يجر على نفسه ضررا لم يكن متوقعا لديه.

ومع مرور الزمن، صارت هذه الصورة المبسطة لمظاهر حياة الإنسان، تزداد تعقيدا وتشعبا حتـــى لتكـــاد تخفى أصولها عن جل العقول. ومع تطور الإنسان، وتوصله إلى تحقيق بعض أغراضه ، صارت الكماليـــات تتولد عن الضروريات، ثم تصير الكماليات أشبه بالضروريات. فينطلق الإنسان سعيا وراء تحقيق أغراض و كماليات لا تكاد تنحصر، إلى أن بلغ الحال إلى ما هو عليه اليوم.

لكن هل خرج الإنسان من حيرته؟ وهل وجد الأجوبة الشافية عن أسئلته؟ ذلك ما يشهد على نفيه أغلب مـــا توصل إليه الإنسان من خلال مسيرته العقلية؛ باستثناء قلة ممن سنتعرف عليهم في الباب الثـــاني مـــن هـــذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

من خلال وظائف العقل الإنساني، المتعلقة بمختلف مظاهر إسهاماته في تطور الحياة البـــشرية، نـــستخلص خاصيات لهذا العقل، منها:

ا ــ قدرته على خزن المعلومات.

ب ــ قدرته على تذكر المعلومات المخزونة عند الحاجة إليها.

ج ــ تجريد المدركات الحسية من صورها، والعبور إلى معانيها: وذلك كالعبور من صورة المـــصباح مـــثلا إلى معنى الإنارة، ومن صورة السلاح إلى معنى القتل.

د ــ خلع صورة محسوسة على المعاني المجردة (التصوير): وذلك كمنح معنى الإنارة صورة المـــصباح، أو معنى القتل صورة السلاح، وهي (أي هذه الخاصية) عكس سابقتها، لذلك هما متكاملتان بالنظر إلى دورهما في العمليات العقلية.

ه ــ التخيل: وهو تركيب مدركات حسية لها أصل في الواقع على هيئة لا توجد عليها في الواقع، وذلك كمـــا يفعل مؤلفو القصص الخيالية مثلا، أو كأن تتخيل إنسانا له رأس ذئب وأذنا حمار وذنب أسد مثلا.

هذه الخاصيات التي ذكرناها ستعمل على إثراء عملية عقلية رئيسة في هذا الطور، هي عملية التفكر.

2 . الفكـــــر:

الفكر هو استعمال معلومات ثابتة الصحة عند العقل للتوصل إلى معلومات جديدة. وأولى المعلومات ثابتة الصحة لدى العقل، و التي كانت منطلقا لعملية التفكر هي البديهيات التي هي شطر المسلمات، و التي تقبّل العقل صحتها من دون برهنة عليها، بل هي لا تقبل البرهنة، وذلك كإدراك الإنسان لوجود نفسه؛ بخلاف من أراد الاستدلال على وجوده كما سيأتي. وكعدم اتصاف شيء بنقيضين في نفس الوقت، الذي هو من المسلمات، وذلك كأن تقول: إن الرجل طويل قصير، أو إن الثوب جديد بال، هذا مبلغ الفكر.

ثم إن العقل يضم معلومتين تشتملان على عامل مشترك (الحد الأوسط) إلى بعضهما، فينتج له ذلك علما جديدا لم يكن لديه، و هذه المعلومة الجديدة يضمها إلى أخرى فتنتج له نتيجة أخر، وهكذا ... فالمعلومتان الأوليان اللتان تُضمان إلى بعضهما هما المقدمتان، والمعلومة الجديدة هي النتيجة.

يتضح من هذا، أن عملية التفكر عملية تسلسلية توالدية، تنبني على أصل ثابت لدى العقل غير متولد عنه، إذ لو تولدت عنه لكانت البديهيات مبرهن عنها.

ضوابط الفكر:

إن الفكر الذي يعتمد في مساره طرق البرهنة المعروفة، لا بد أن يتقيد بضوابط وشروط كي يضمن عدم الزلل، ومن ذلك:

ـ لا بد من علم الأصول والفروع، والكليات والجزئيات، وعلم النسب المختلفة بين أمرين أو أكثر: كالتقابل والتضاد والتناسب والتوافق والتطابق، وغير ذلك ...

ـ تمييز العلوم المهارية العملية من العلوم النظرية الصرف.

ـ قابلية المراجعة والتدارك والتصحيح.

ـ قابلية المقارنة مع فكر آخر.

وبما أن عملية التفكر عملية مترابطة، فإن بعض أجزائها متوقف على البعض الآخر: فلو افترضنا أن الخطأ تسرب إلى جزء منها، فإن كل الأجزاء المترتبة عنه باطلة، تجب إعادة النظر فيها بعد تصحيح الخطإ في الجزء السابق لها.

ثم إن عملية التفكر تتبع خطا معينا مستندا في توجهه إلى مبدإ يحكمه ويوجهه في كل مرة. هذا الخط هو النسق الفكري، والمبدأ الموجه هو المنطق. إذن فللفكر عدة أنساق حسب احتمالات استعمال المعلومات التي لدى العقل، وهو محكوم بعدة أنواع من المنطق نُرجعها إلى اثنين أساسين:

ا ـ المنطق المجرد: وهو الذي يتحرى الصحة والصدق دونما أي اعتبار آخر. وهذا المنطق غالبا ما تكون نتائجه صحيحة.

ب ـ منطق الهوى: وهو المنطق الذي له اعتبارات أخرى تحددها الأهداف العامة لعملية التفكر، قد يقدمها العقل على الصحة، وبذلك تكون نتائجه فاسدة بقدر ابتعادها عن المنطق المجرد.

نماذج من الفكر المحرف:

ــ الفكر الجدلي: ينحرف صاحب هذا الفكر عند تقديمه اعتبار إفحام الخصم على اعتبار الحق.

ــ الفكر السياسي: قد ينحرف السياسي عن الحق إن هو قدم اعتبار اكتساب المؤيدين والأنصار على اعتبار الحق، أو قدم اعتبار غلبة الخصم على اعتبار الحق، وهكذا ...

ــ الفكر التجاري: ينحرف التاجر أو رجل المال عن التفكير السوي إن اعتبر الربح أكثر مما يعتبر الحق، أو اعتبر عدم الخسارة أكثر من اعتبار الحق.

يتبين من كل هذا أن لكل هوى منطقا، والأهواء متعددة تعدد الأغراض، فينتج عن ذلك عدة أنواع من الفكر تلتقي مع بعضها أحيانا، وتتضارب أخرى.

3 . آفـــات الفكر:

من خلال ما سبق، يتضح أن الفكر ليس معصوما، وأنه معرض لآفات منها:

أ ــ احتمال الخطإ بسبب تشعب عملية التفكر وكثرة الضوابط لها وطول النسق المحدد لمعالمها.

ب ــ اتباع الأهواء،وهو ما يحرف الفكر عن وضعه الأصلي.

ج ــ جهل الضوابط التي تحكم العملية أوعدم إتقانها.

د ــ التقليد: وهو يؤدي إلى عدم التثبت من مكونات الأنساق، بسبب ثقة في الغير أو تأثير هذا الغير، مما يزيد من احتمالات الخطإ.

ه ــ التعصب للفكر، وهو ناتج عن الثقة المطلقة بالفكر، واعتقاد أنه بإمكانه التوصل إلى جميع المعلومات المرادة للعقل. وهو بهذا الاعتبار قيد للعقل إلى جانب قيد الحواس الذي ذكرناه سابقا، عوض أن يكون عونا له على الترقي في مدارج الإدراك الممكنة.

و ــ التشعب: وهو احتمال تزويج كل معلومة لكل معلومة أخرى، مما يجعل المتفكر أحيانا يمر بجانب الحل الصحيح، أو ما يجعله يتوصل إلى الحل، لكن عن طول في التفكر، كان من الممكن تلافيه.

4 . بيان نماذج من الفكرفي قضية الوجود والرد عليها بإيجاز :

ا ــ المنهج الشكي الديكارتي:

شاع في الآفاق ذكر ما يسمى المنهج الشكي الديكارتي، و اعتمد أحيانا مذهبا فكريا حجة. و شاعت مقولة ديكارت الشهيرة: أنا أفكر، إذن أنا موجود. الواضح أن ديكارت أراد هنا أن يستدل على وجوده، فنقول:

أولا: إن وجود المرء عند نفسه، لا يستدل عليه، لأنه بديهية مسلمة، والبرهنة على البديهية نكث لغزل. فإن قيل إن البرهنة على البديهية أبلغ في صحة الفكر؛ قلنا: بل هي نقض للفكر من أساسه، إذ لولا البديهيات المسلمة ما ظهر للفكر وجود.

ثانيا: استدل ديكارت على وجوده بعملية فكره، وهي عمل عقلي، والعقل صفة للمستدل(اسم فاعل) والفكر فعل له، والبرهنة في هذا الاتجاه باطلة. فهي كالاستدلال على الأصل بالفرع أو الجوهر بالعرض، وهذا إخلال بالمراتب العقلية التي تقتضي الاستدلال على الفكر بالعقل وعلى العقل بذات المستدِل.

ثالثا: إن المقولة المذكورة، لا تنطلق من الشك كما يُظن: فكلمة " أفكر" مستندة إلى " أنا "، و" أنا " يقين لا شك. فهو إذن انطلق من وجود إلى وجود، وهذا من قبيل تحصيل الحاصل ولغو الفكر.

رابعا: لا يمكن بتاتا الانطلاق من الشك المطلق في عملية التفكر المتعلق بالوجود: ذلك أن الشك المحض، استواء تام بين رتبتي الوجود والعدم، فاحتيج إلى مرجح حتى تقع الحركة العقلية، فإن وقع الترجيح للعدم عقلا، لم يصح أن يكون أساسا للفكر، إذ العدم لا يبنى عليه، وإن وقع الترجيح للوجود، فالعملية الفكرية، يكون وقتَها انطلاقها من يقين لا من شك.

فيبقى أن الشك المقبول عقلا، ليس هو: هل هو موجود أم لا، وإنما: هل هو كذا أم كذا (من الصفات). وهذا خلاف هذا المذهب. فتبين بعد كل هذا بطلان هذا المذهب، وبطلان مقولته. وإننا لنعجب كيف لم يتصد لدحضه وبيان عواره أحد، مع كثرة المفكرين في هذا العصر.

ب ــ الفكر الإلحادي المعطِّل:

يقوم هذا المذهب الفكري على أساس " لا إله" مع إثبات وجود الكون بما فيه القائل بهذا المذهب. فنقول:

أولا: لا بد لهذا الكون من أحد أمرين، بما أنه مشهود الوجود:

ــ الأمر الأول: أن يكون وجوده عن نفسه.

ــ الأمر الثاني: أن يكون وجوده عن غيره.

بسط الأمر الأول: وجود الكون ليس قديما بسبب سبقه بالعدم، وهذا أمر ظاهر، والكون في حالة العدم لا يكون عنه وجود، فكيف إذاً يمكن للكون أن يوجد نفسه؟ فتبين بطلان الاحتمال الأول.

بسط الأمر الثاني: وهو أن يكون وجود الكون عن غيره، وله احتمالان:

إما ان يكون هذا الغير مشابها للكون أوأن لا يكون. فإن كان مشابها للكون، احتاج إلى موجد له، والموجد إلى موجد، إلى ما لا نهاية، وهو أمر غير ممكن عقلا؛ أولا بد له من الانتهاء إلى موجد أصلي. وإن كان هذا الموجد غير مشابه للكون من حيث الوجود، لا بد أن يكون وجوده ذاتيا (لاستحالة التسلسل)، وغير مسبوق بعدم، وهو معنى القدم (لوجوب هذا الوجود). أما الوجود التابع لهذا الوجود، وهو وجود الكون، والذي يأتي في المرتبة العقلية الثانية، فهو الوجود الواجب بغيره، وهو أيضا الوجود الممكن، وذلك بالنظر

إلى مرتبته الأصلية التي هي العدم، ومرتبته الحالية التي هي الوجود؛ ووجود الممكن هو عين ترجيحه، والمرجح هو واجب الوجود بنفسه. فتبين من هذا، أن للكون موجدا قديما، صفة الوجود له ذاتية.

فإن قيل: إن الكون وجد عن الطبيعة، وهو قول الطبيعيين، نقول: إما أن تكون الطبيعة موجودة بغيرها، فتلحق بمرتبة الممكنات، وهذا ما لا يؤهلها لأن توجد الكون: فكما قلنا سابقا إن الممكن أصله عدم، والعدم لا يكون عنه وجود؛ وإما أن تكون قديمة، صفة الوجود لها ذاتية، فيكون الخطأ قد وقع من حيث إطلاق الاسم لا غير.

وإن قيل: إن الكون وجد عن صدفة، كما يقول كثير ممن يعد نفسه عاقلا هذا الزمان، فنقول:

أولا: إن الصدفة هي عدم القصد في الإيجاد، وهو عدم، والعدم لا يكون عنه وجود كما قلنا.

ثانيا: إن تأملنا الكون وجدناه على ترتيب معين، ونظام متسق بيّن، فإن كان وجوده صدفة (افتراضا) فقد تبع هذه الصدفة الأصلية عدد غير متناه من الصدف، والصدفة المتكررة أو المتعددة، تبطل منطق الصدفة، إذ التكرار والتعدد يفيد القصد. فلو قلنا مثلا إن الإنسان الأول نتج عن صدفة، فالذي بعده (ولده) يجب أن ينتج عن صدفة أخرى، وولد الولد عن صدفة ثالثة، لتبين للعقل السليم أن هذا لا يستقيم، وأن وجود الإنسان مقصود لموجده.

ج ــ الفكر الدهري أو التاريخي بالتسمية المعاصرة: وهو قريب من سابقه:

يدعي هذا المذهب أن الكون موجود، لكن وجوده بغير غاية، بل هو (أي الكون) الذي يحدد مساره في هذا الوجود. والوجود عند هؤلاء دنيوي لا آخرة فيه. يتبين أن هذا المذهب كسابقه، إلا أن الأول وقعت له الشبهة في القصد للوجود وهو البدء، بينما هذا الثاني وقعت له في الغاية من الوجود وهي النهاية. فنقول:

أولا: إن عدم ترتيب حكمة عن إيجاد الكون، الذي هو العبثية، لا يمكن أن يصدر عنه وجود لعدميته كما سبق مرارا.

ثانيا: وكما أن الصدفة لا يمكن أن تكون بداية للنظام، لعدم صحة القول بتسلسل الصدفة، فكذلك العبثية لا يمكن أن تُسبق بالنظام لوجوب تسلسل العبثيات قبلها، وهو ما لا يقبل عقلا.

د ــ المذهب المادي، أوما يسمى زورا بالعلمي:

أصحاب هذا المذهب لا يعترفون إلا بالمحسوس، فما أثبتته حواسهم وعقولهم بالتبعية لها، أقروا به، وما لم يدركوه بهذه الطريقة أنكروه.

فنقول:

أولا: إذا كان العقل غير مشهود للحواس، وهم يحكمون على غير المشهود بالعدم، فكيف يستندون في مذهبهم إلى عدم؟ فإن قيل إن العقل هو الدماغ و الدماغ مشهود، قلنا: فعملية التفكر غير مشهودة. فإن قيل: هي كهرباء سارية في الدماغ، قلنا: هل قستم تلك الكهرباء بحيث تستطيعون قراءة أفكار إنسان ما، بمجرد قياس

أقدار كهرباء دماغه؟ فإن قالوا: لا، قلنا لهم: فكيف تثقون بنتيجة غير مجربة عندكم؟ ولـزمهم إذ ذاك: إما الرجوع عن مذهبهم، أوالقول بعدم وجود عقولهم.

ثانيا: إن المادة نفسها منها ما هو مدرك (اسم مفعول) لنا، وما هو غير مدرك، فما هو مدرك لنا بالحواس لا خلاف عليه مع تباين في الإدراك بين الأشخاص: فقد يدرك بالحواس شخص ما، ما لا يدركه غيره كما سبق، فيكون ما هو مشهود للأول غيبا عند الثاني؛ غير أن التفاوت في مجال الحواس ضئيل، لذلك نجاوزه إلى غيره: وهو أن من الماديات ما لم يكن مدركا في الأزمنة الماضية (كالجسيمات الصغيرة مثلا)، وأصبح مدركا في زماننا بواسطة الآلات والأجهزة المتطورة. فإن نظرنا إلى تسلسل الأزمان، وجدنا أن ما كان غيبا عند قوم أصبح شهادة عند آخرين. و التطور مستمر، والأجهزة متسارعة في التطور. فدل هذا على أن من المادة ما هو غيب دائما . فإن كان الأمر كذلك، وجب حسب مذهب هؤلاء إنكاره، فإن أنكروه وثبت وجوده شهادة مستقبلا، لزم أنهم أنكروا موجودا مشهودا، بصرف النظر عن الزمان. فتبين فساد مذهبهم.

ثالثا: نضرب مثلا على الوجود غير المادي فنقول: اللفظة، إن كانت مكتوبة فمادتها الرسم وهو مداد على ورق، وإن كانت منطوقة، فمادتها الصوت وهو ذبذبات في الهواء؛ لكن مدلولها، أتراه ماديا؟ ! ولا خلاف على ثبوت المدلول.

وخذ على ذلك مثلا: كلمة "معنى" وجرب.

فثبت بعد هذا كله، أن ما يسمى بالفكر المادي أوالعلمي التجريبي ، إنما هو فرع من العلم وليس هو كل العلم، حتى يُظَن أن كل ما خرج عنه يُعَد خرافة وهذيانا كما يُزعم.

5 . خـــــــلاصة:

ــ نهاية الفكر السليم في الإلهيات هي: العلم بوجود الإله (لا العلم به)، مع نفي صفات المحدثات عنه. وهو ما يسمى السلب . خلافا لمن اعتقد أن السلب هنا تعطيل. بل هو إثبات تنزيه لكن لا على التفصيل في هذه المرحلة من مراحل إدراك العقل، والتي سنتعرف عليها في ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

فإن زاد الفكر على هذا في الإلهيات، فإنما سيقع في سقطات فكرية تهوي به إلى درك العقل غير السليم.

ــ ويبقى للفكر دوره في العلوم الكونية (التي تتعلق بالمخلوقات) كالطب والفيزياء والفلك أو العلوم العقلية كالرياضيات والمنطق. هذه العلوم التي يتقدم فيها الإنسان بحسب جهوده الفكرية المتجمعة عبر العصور، والتي لا ينكر دور الفكر فيها إلا جاهل. كما يبقى للفكر دوره الأساسي، ألا وهو الدور المعاشي وتدبير حياة الإنسان بحسب مستجدات الظروف والوقائع.

الباب الثاني
العقل المعضَّد

الفصل الأول

الإيمان والكفر

1 . الفطرة:

عندما ثبت لدى العقل السليم وجود موجد له، علم بمنطقه الاستدلالي أنه مرتبط بموجده ارتباطا لا انفكاك له عنه، هذا الارتباط هو المسمى مألوهية. وثبت له في مقابل مألوهيته ألوهية موجده، فتميزت لديه المرتبتان: الألوهية والمألوهية. ثم بطريق القياس والاستنتاج، وبما أن وجوده مستفاد من الإله، توصل إلى أن ما يتعلق بوجوده من صفات وأفعال (الأعراض)، هو أيضا مستفاد من الإله بالأحروية. فظهر له أنه لن يعلم نفسه حقيقة ولا إلهه من نفسه، بل بإعلام من إلهه. فانكسر ونزل إلى المرتبة السفلى راضيا منتظرا ما يفيضه عليه إلهه من مواهب.

وهذه المنزلة هي منزلة الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهي منزلة المُوَفَّقين من أهل الفترات الذين كانوا قبل البعثة المحمدية ولم يدركوا رسولا. أما اليوم، فلم يعد لهذا الصنف من الناس وجود بسبب استغراق الرسالة المحمدية للزمان إلى قيام الساعة. وهذه المنزلة هي أيضا التي يولد عليها الإنسان لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« كل مولود يولد على الفطرة ، فإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.»[1]

2 . الإيمان أو الكفر:

سمع العقل أن رجلا يدّعي أن الإله أرسله لباقي بني جنسه:M r s t u v w x y L[2]، وأنه يخبرهم عن هذا الإله، عن صفاته وعن أفعاله، و يبلغهم أوامره ونواهيه، ويعلمهم كيف يتقربون من إلههم حتى ينالوا رضاه. فرجع العقل إلى نفسه يمحص ويتحرى، فتبين له أن هذا الأمر جائز في عرفه، لكن لا بد له من علامة يميز بها بين الرسول الحق وبين من يدعي هذه المهمة زورا.

فانبرى الرسول يتحدى الناس بأمور لا يستطيعون الإتيان بها، و هي المعجزات، التي هي قولية وفعلية:

ـــ القولية: ما يتعلق بالإخبار عن الله بما لا يعلمه إلا الله عن نفسه. أو بالإخبار عن الوقائع التي لا زالت في رحم الغيب، حتى إذا وقعت جاءت كما أخبر الرسول.

ـ والفعلية: ما وقع من الرسول من تصرف في الكون، كشق البحر، وإبراء الأكمه، وتكثير الطعام القليل، وتفجير الماء من بين الأصابع، إلى غير ذلك ...

---

[1] . متفق عليه .
[2] . الأعراف . 158 .

هنا، وجد العقل نفسه، بعد استنفاد كل سبل التحري والتثبت أمام سبيلين:

الأول: أن يصدق الرسول فيما جاء به.

والثاني: أن يصد عنه ويتولى.

ولا سبيل له من نفسه إلى سلوك السبيل الأقوم إلا بتوفيق من الله تعالى: M N M L K J I H L O[3]. فإن أذن الله له في الإيمان وجد نفسه منقادا للرسول وكان ممن قال الله فيهم :M } ~ وَأَطَعْنَا L[4]، وانفتح له مع الإيمان أفق جديد لم يكن مدركا له من قبل. أفق يجاوز الحدود التي كانت تحيط به وتقيده :M هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ © بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ L [5]. والظلمة تقييد والنور انفساح.

وأما إن لم يوفق، فسينكر ما جاء به الرسول، إما عموما: كمن يكفر بجميع الرسل، وإما خصوصا كمن يومن ببعض ويكفر ببعض: أي يومن برسول سابق، ويكفر بالرسول الذي أدركه زمانه. وفي الحالتين سيمكث في ضيقه كما وصف الله ذلك بقوله تعالى: M * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? L[6]. وعلى التحقيق، فإن الإيمان والكفر وجهان متقابلان للقلب (أو قل وجه وقفا): فمن آمن بالله، كفر بسواه من الآلهة المزعومة؛ ومن كفر بالله آمن بسواه. وذلك كما قال الله تعالى:Mفَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا L[7]، وقال أيضا: Mوَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ L [8].

والإيمان المقصود هنا في هذه المرحلة، إنما هو إيمان مجمل. هو أقرب إلى مدلوله اللغوي، أي مطلق التصديق. وهو نور يقذفه الله بفضله في قلب من يشاء من عباده. وهو قد يوجد لدى عقول ليس لها تمرس بالفكر والنظر، بل قد يوهب لعقول ساذجة بسيطة فطرية. فهو إذن ليس نتاجا فكريا، ولو كان كذلك، لكان حكرا على الأذكياء والفطناء من بني الإنسان.

وهذا النور بالنسبة للعقل، كالنور المحسوس بالنسبة إلى العين، يكون وسيلة لإدراك ما لم يكن يدرك من المعلومات الوجودية التي كانت عنده قبل هذا، من قبيل العدم. وهذا الإيمان يسير بالعقل في مجال جديد، قد يصحح على ضوئه سابق مدركاته إن لم يغيرها جملة.

أما الكفر: فهو انطماس هذا النور وانقطاع أسبابه انطلاقا من معناه اللغوي الذي هو الستر والحجب، حتى أن الفلاح والليل يسميان كافرين .

وبما أن الإيمان نور، فإن الكفر ظلمة تغشى العقل، فلا يدرك بمقتضاها معلومات وجودية هي عند المؤمن من ضرب البديهيات أحيانا لوضوحها. فانظر ضيق العقل الكافر وحرمانه ! فتجد المؤمن يدرك بنور إيمانه

---

[3] . يونس . 100 .
[4] . البقرة . 285 .
[5] . الحديد . 9 .
[6] . الأنعام . 125 .
[7] . البقرة . 256 .
[8] . العنكبوت . 52 .

ما يتعدى حدود فكره ونظره، وتجد الكافر لا يستطيع أن يتجاوزهما. هذا إن سلما له ! وذلك كما في قول الله تعالى:M . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 L[9].

3 . أسباب الكفر:

إن كان الإيمان يُنال بفضل من الله ورحمة، فإن الكفر ترجع أسبابه إلى الإنسان نفسه. ومن تلك الأسباب:

ا ــ إيثار الحياة الدنيا، لقول الله تعالى:M فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ L[10].

ب ــ اتخاذ الشيطان وليا من دون الله، لقول الله تعالى:M | { ~ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا © L[11].

ج ــ عدم المبالاة، لقول الله تعالى:M(* + , - . / 0 1 2 3 4 L[12].

د ــ عدم العلم (أي إدراك حقائق الأشياء)، لقول الله تعالى:M بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم à ﴿٢٤﴾ L[13].

ه ــ عدم صفاء الإدراك، الذي يؤدي إلى انبهام الأمور. فيظن المرء أمرا ما، أمرا آخر، وذلك كقوله تعالى:M فَلَمَّا ´ µ ¶ ¸ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ L[14]، لجهلهم بحقيقة السحر، المخالفة لحقيقة الوحي.

و ــ الكبر، لقول الله تعالى:M فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ © قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ ´ µ ¶ ¸ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ L[15]. وكما قال أيضا:M U V W X Y Z [\ ] L[16].

زــ الغفلة ، لقول الله تعالى:M ! " # $ % & ' | ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 9 : ; < = | ? @ A B L[17]. هذا رغم أن حواسهم في ظاهرها سليمة. إلا أنها ــ وبما أنها لم تؤد مهمتها الأساسية، وهي أن تكون وسيلة لاعتبار صاحبها فيما يستعملها فيه ــ قد أصبح حكمها حكم عدمها. فكانت العين عمياء حكما، والأذن صماء بهذا الحكم أيضا، وهكذا...

---

[9] . الروم . 7 .
[10] . النازعات : 37 - 39 .
[11] . الكهف : 50 .
[12] . الأنبياء : 2 .
[13] . الأنبياء : 24 .
[14] . يونس : 76 .
[15] . هود : 27 .
[16] . الأعراف : 76 .
[17] . الأعراف : 179 .

ح ــ إرادة الدنيا ، لقول الله تعالى:M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 L[18]. ولقولـــه أيـــضا:M T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e L[19].

ط ــ الديانة بغير دين الحق، لقول الله تعالى:M [\ ] ^ _ ` a b L[20]، ولقوله أيضا:M @ A B C D E F G H I J K L L[21]، ولقوله تعالى أيضا :M H I J K L L[22].

ي ــ الشرك ، لقول الله تعالى:M وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ © L[23].

4 . رفع للَبس:

سمعتْ بعضُ العقول قوله تعالى:M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? L[24]، وأمثاله، فقالت: بما أن الهداية والضلالة بإرادة من الله، فكيف يثاب العبد في حالة الهداية ويعاقب في حالة الضلال، وهو لا يد له فيهما معا؟ وحكى الله تعالى عن قوم قولهم:M / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a L[25]. وانظر كيف جعل الله حل هـذه المسألة بالعلم، إذ لو كان لهؤلاء القائلين علم بالأمر ما قالوا ما قالوا. ولكن لما غلب عليهم الظن، وهو علم غير ثابت الصحة، قامت حجة الله عليهم بجهلهم. ولو كان لهم علم بالأمر لقالوا كما قال الله تعالى:M F G H I J K L[26]،**ولأدركوا معنى قوله تعالى** :M . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 L[27]. ذلك أن الله تعالى ما أخرج إلى الوجود إلا ما أراد، وما أراد إلا ما علم. وقد علم الله في المؤمنين صفة الإيمـــان، فأوجدهم على هذه الصفة؛ كما علم في الكافرين صفة الكفر، فأخرجهم على صفتهم تلك. فما أُتي الإنـــسان إلا من نفسه. وقد أشار إلى هذا المعنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:«...فمن وجد خيرا فليحمـــد الله (لأنه هو الذي تفضل بإخراجه إلى الوجود)، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه (لأنـــه علـــى تلـــك الصفة في علم الله).»[28]

فقول العقول القاصرة إن الله سبحانه وتعالى، بما أنه نسب إلى نفسه الهداية والضلالة يكون ظالمـــا، باطـــل من هذا الوجه.

---

[18] . الإسراء : 18 .
[19] . إبراهيم : 3 .
[20] . التوبة : 29 .
[21] . آل عمرن : 85 .
[22] . آل عمران : 19 .
[23] . الأنعام : 14 .
[24] . الأنعام : 125 .
[25] . الأنعام : 148 - 149 .
[26] . النساء : 40 .
[27] . يونس : 44 .
[28] . أخرجه مسلم .

ومن وجه آخر: إن كل الوجود، وما ظهر من موجود إنما هو ملك لله تعالى. ومن تصرف في ملكه، فما ظلم . بل الظالم من تصرف في ملك غيره واعتدى عليه. وهذا ما لا يصح في حق الله تعالى. وإن كنا نرى أن الوجه الأول أقوى في الرد على هذه الشبهة.

وعلى كل حال، فإن علم هذه المسألة ليس في مقدرة العقل المجرد، أو العقل المعضد في هذه المرحلة، وإنما هو من علوم الكشف التي سنتطرق إليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

5 . مرتبة الإنسان الكافر:

لما كان هذا الكون لم يوجد عبثا ولا من غير قصد، كان الوقوف على دلالته والحقيقة المؤسسة لوجوده مطلب الإنسان العاقل و مطمح المتأمل الآمل في بلوغ منزل الطمأنينة التي تعز على أكثر العقلاء. فكان الوجود بهذا المعنى كتابا إلهيا بيّنا لمن فتح الله بصره وسمعه وقلبه. وإلى هذا، الإشارة بقول الله تعالى:K M L N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c L[29]. وإنه لأمر عجيب أن يغيب هذا المعنى عن أغلب الناس، حتى صاروا يستدلون بهذه الآيات على تعلم القراءة والكتابة، ويجعلونها أساسا للدعوة إلى التعليم بالمعنى الجزئي، في المؤسسات الخاصة بذلك؛ ناسين أو متناسين أن الأمر الإلهي الوارد في الآيات السابقة، موجه بالدرجة الأولى إلى رسول أمي وأمة أمية. وغافلين عن كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، المعصوم، قد امتثل الأمر الإلهي وقرأ.

فأي قراءة هي هذه ، غير التي أشرنا إليها؟ وتدبر قول الله تعالى ، بعد الأمر بالقراءة:K M L N O P L، لتعرف أن الكتاب المخلوق (الكون) هو المقصود بالقراءة. وما ذكرناه لا ينتقص من تعلم القراءة والكتابة المعهودتين شيئا في كونهما واسطة لنيل العلوم أو سببا في حفظها وتدوينها.

ولما كان الإنسان الكافر عاجزا عن تدبر الكون، كانت حواسه معطلة من حيث الحقيقة، وإن سلمت من حيث الحس: إذ الإدراك هو المقصود من وراء الحواس، لا عين الحواس. فلما انعدم الإدراك انعدم سببه بانعدامه حكما. وانظر قول الله تعالى عن الكافرين:M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 9 : ; < = ? @ A B L[30]، لما فقد الإنسان إدراكه الذي هو روح حواسه، فَقَدَ تبعا لذلك إنسانيته ونزل عن مرتبته إلى مرتبة الدواب. بل الدواب أعلم منه بالأمر، لأنها على وحي غريزي لا تحيد عنه:M W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d L[31]، ولم تنزل عن مرتبتها الأصلية كما نزل هو.

فانقسمت المرتبة الإنسانية لزوما إلى مرتبتين:

ـــ مرتبة الإنسان الآدمي الذي تحقق بإنسانيته.

ـــ مرتبة الإنسان الحيواني الذي هو إنسان بالصورة فقط، لا بالحقيقة.

---

[29]. العلق : 1 - 5 .
[30]. الأعراف : 179 .
[31]. النحل : 68 .

فكان الكافر بهذا في حقيقته حيوانا من جملة الحيوانات، و من تدبر ما قلناه في الواقع، لوجده كما قلنا. و يكفي للدلالة على ذلك الإشارة إلى بعض الصفات التي تظهر على هذا النوع من الإنسان، والتي لا تختلف عن صفات الحيوانات المتوحشة أحيانا، و ليس قصدنا هنا التفصيل.

6 . العقل والجنون:

بما أن للعقل مراتب يتميز بعضها عن بعض من حيث الإدراك، بل تتفاوت في ما بينها، فبديهي أن تتكر بعض العقول ما يدركه البعض الآخر: لخروج مدركات طائفة عن دائرة إحاطة طائفة أخرى. لذلك نجد العقول المرتبة في المراتب الدنيا، والمحصورة غالبا في قيود الحس أو الفكر، تتهم العقول المرتبة في المراتب العليا بالجنون: والجنون إن رجعنا إلى معناه اللغوي، وهو البطون أو الستر، ومنه جن الليل، والجن (والمقصود منه المخلوقات النارية أو النورية على السواء) والجنين (اسم مفعول) وهو الطفل المستور في بطن أمه ، إلى غير ذلك ... إذا رجعنا إلى هذا المعنى، فإطلاق الجنون صادق لخفاء المدرك وبطونه في حق طائفة دون أخرى. ولكن إن رجعنا إلى المعنى العرفي المقصود منه أن المجنون هو من أصيب بمس من الشياطين يؤدي به إلى تخبط في التفكير وخلط في التعبير، فهو باطل. وهو ما نفاه الله تعالى عن رسله عندما اتهمهم قومهم بالجنون كما في قوله تعالى:M_ ` a b c d L [32]، لمثل من حكى عنهم قولهم:M K L M N O P Q R S L [33].

يتضح من كل ما سبق، أن الجنون مراتب بحسب العقول الناظرة فيه: فالعقل المؤمن، مجنون بنظر العقل الكافر. والمحسن مجنون بنظر المسلم. وهكذا فلتقس على كل المراتب. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الرسل عليهم الصلاة والسلام، أوالمبلغون عنهم من أتباعهم، يتنزلون إلى العقول المرتبة في المراتب الدنيا حتى يستطيعوا إبلاغهم ما يريدون إبلاغهم إياه، رحمة منهم ورأفة وحسن تربية وحكمة.

---

[32] . القلم : 2 .
[33] . الحجر : 6 .

الفصل الثاني

إسلام النفس

آل عمران: ١٩ L L K J I HM

بعد أن تركنا العقل الكافر الذي نزل عن مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الأنعام في سجنه الذي لا يستطيع الخروج منه إلا بإذن ربه، وتابعنا العقل السليم الموفق عند ولوجه منزل الإيمان، نواصل الآن مع هذا الأخير مسايرتنا له أثناء دخوله في المرتبة الأولى من الدين، وهي: الإسلام.

وإسلام العقل هو انقياده لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يعلم وفيما لا يعلم، في منشطه ومكرهه. هذا الانقياد يورث القلب حال التوبة إلى الله (الرجوع إليه) الذي سيلازمه في كل مراحل سلوكه التي سنعرفها لاحقا.

والإسلام من حيث ما هو دين، هو دين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وجميع أتباعهم، وقد بدأ مع أولهم (الرسل) وأخذ يتدرج في المراحل عبر العصور والأزمان، حتى بلغ منتهاه وكماله على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أنزل عليه:K M L N O P Q R S T U L[34].

وهذا التدرج الذي للدين في مدارج الكمال، إنما هو بسبب اختلاف استعدادات الآمم المختلفة. فكان كل رسول يبعث إلى قومه بما يناسب استعدادهم. ولما كانت الأمة المحمدية أشرف الأمم عند الله تعالى، وأكملها استعدادا، وكان رسولها صلى الله عليه وآله وسلم، هو سيد الرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، كان الدين المحمدي هو الإسلام الكامل . وبما أنه كذلك، امتنع أن يُرسل بعده رسول. إذ لو أرسل لكان إما مساويا له أو ناقصا عنه: والمساواة تكرار، والتكرار لا يجوز في حق الله الواسع. كما أن النقص معاكس للحكمة لقول الله تعالى : M " # $ % & ' ( ) (* + , L[35]. فتبين أن الحكمة تقتضي التدرج من النقص إلى الكمال لا العكس. وظهر أنْ لا شرع بعد شرعه صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء في حديث عمر رضي الله عنه:« بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: *الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا*

---

[34] . المائدة : 3 .
[35] . البقرة : 106 .

رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: *أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره و شره*. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: *أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك*.(...) قال: ثم انطلق فلبث مليا ثم قال : *ياعمر، أتدري من السائل؟* قلت: الله ورسوله أعلم. قال: *فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم*.» [36]

فجعل الدين كل هذه المراتب: أي الإسلام والإيمان والإحسان. ففهمنا أن مَن أكملها، كان دينه كاملا، ومن عليه منها بقية، كان دينه ناقصا بحسب ما بقي عليه.

1 . مرتبة الإسلام:

استنادا إلى الحديث السابق، فإن مرتبة الإسلام لها أركان خمسة سنعرض لها، لكن بغير التفصيل الفقهي المعهود، إذ هذا ليس محله. وهذه الأركان هي:

ا ــ الشهادتان: طلب الشارع من العقل المؤمن إيمانا إجماليا أن يُعمل جارحة من الجوارح التي تقع تحت حكمه وهي اللسان. وجعل عملها مع إقرار القلب بفحواه، شرطا في دخول الإسلام من حيث ما هو دين ومن حيث ماهو مرتبة. والشهادتان في الحقيقة شهادة واحدة لها شقان لا يستقلان عن بعضهما:

ــ الشق الأول: أشهد أن لا إله إلا الله: وهو نفي الألوهية عن الأغيار وإثباتها للإله الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باسمه " الله ".

ــ الشق الثاني: أشهد أن محمدا رسول الله: وهو إثبات الرسالة التي هي التبليغ عن الله، للرجل المكي القرشي المسمى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم.

مقتضى الشهادة: هو عبادة الله وحده باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والاتباع في هذا الزمان، وفي هذه المرحلة للعقل، يقتضي اتباع الفقيه العالم بالأحكام الشرعية المبيّن لها. ذلك، نظرا لانتقال شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا.

ب ــ الصلاة: وهي موعد ضربه الله تعالى للعبد خمس مرات في اليوم، على هيئة مخصوصة، ليعبده ويستعينه ويستهديه، حتى يسلم له سيره قُدُما في طريق التقرب. والصلاة أساس الدين بهذا الاعتبار، الذي يجعلها مركز الاستمداد من الله بغية الورود عليه. فمن لا استمداد له لا أهلية له؛ ومن لا أهلية له، لا قرب له.

ج ــ الزكاة: وهي العبادة التي تجعل الغير من أسسها المشروطة لها، فبإخراج الغني جزءا من ماله للفقير على وجه الوجوب، تعمل الزكاة على توسيع دائرة الـ " أنا " عنده حتى تشمل الفقير معه. وتكون بذلك عاملا لاحما للبنيان المسلم، مانعا له من التصدع بسبب الأحقاد التي تنتج عادة عن صراع الطبقات، كما في المجتمعات غير الإسلامية.

---

[36] . أخرجه مسلم والترمذي والنسائي .

د ــ الصوم: وهو عمل تنزهي تقدسي، يقطع فيه الصائم استمداده من الأكوان، وهو فتح للباب الخاص الذي للإنسان مع ربه، وتخلص من الشوائب التي تصحب التعامل مع الكون.

ه ــ الحج: وهو عبادة كاملة يؤديها الإنسان بكليته، مهاجرا فيها إلى ربه قلبا وقالبا، منقطعا فيها إليه تاركا لما سواه (و هو معنى الإحرام فيه) .

يتبين من خلال هذه الأركان أن عمل الجوارح، قد انضاف إلى عمل العقل، وهو بهذا (أي العقل) قد مُكن من التوصل إلى نتائج تعود عليه بتوسيع أفقه وإفساح مجال إدراكه. فصارت الأعضاء والجوارح له كالحواس، إلا أن تحصيله عن طريقها يختلف. وهو بهذا يخرج عن إدراك العقل المجرد أوالعقل المسلم المجرد عنها. لذلك تجد الكافر ينكر هذه الأعمال، والمسلم يؤديها مستندا إلى الإيمان لا إلى العلم. ونقصد بالعلم هنا، العلم بحقيقتها لا يهيئتها.

هذه الأعمال تعود على المسلم بواردات نورانية تنمي إيمانه وتؤهله إلى إدراك ما لم يكن يستطيع إدراكه فيما قبل. فانظر ما أحوج العقل إلى هذه الأعمال المشروعة، إن هو أراد أن يرقى في مدارج الكمال.

2 . العقل في هذه المرتبة:

العقل في هذه المرتبة كالعقل المجرد، هو نفس، وذلك لغلبة شهود التعين على شهود نور الوجود. فكان بذلك أن استولت الظلمة على العقل . وهو كان في مرتبة العقل المجرد، لا يدرك الأشياء إلا كما تُدرك في الليلة الظلماء. فهو إدراك تعين في ظلمة. ولم يداخل العقل من النور إلا بقدر ما يقع التمييز به بين المتعينات وبين الظلمة الأصلية. أما في مرتبة الإسلام، وقد أمده الله تعالى بنور الإيمان المجمل، ثم بنور الإسلام، فيكون إدراكه كإدراك الأشياء في الليلة القمراء، حيث يكون الإدراك هنا إدراك تعينات بنور لكن في ظلمة.

فالعقل في هذه المرتبة والذي هو النفس ، لم يخرج بعدُ من سيطرة ظلمته الأصلية. هذه الظلمة، هي السوء المشار إليه على إجمال في قول الله تعالى:M& ') (L[37]، وM - . / 0 1 2 3 4 5 6 L[38] . والسوء والظلمة مشتركان في الأصل الذي هو العدم. ومن أثر السوء على النفس، إعمالها لفكرها في الأمور الدينية بقدر يخرج بها عن حدود الانقياد للوحي. وذلك كما فعلت الفرق الكلامية حتى فرقت دينها وكانت شيعا، وكما فعلت المذاهب التي حاولت بناء عقيدتها على أساس فكري نظري.

3 . مدركات النفس في هذه المرتبة:

ا ــ معرفة الله معرفة علمية عن طريق الوحي وما تضمنه من ذكر أسماء وصفات وأفعال.

ب ــ تبيّن العلاقة بين العبد وربه (العبودية).

ج ــ معرفة الآخرة ومنازلها.

---

[37] . يوسف : 53 .
[38] . الأعراف : 188 .

د ــ الاطلاع على أحوال الأمم السابقة مع رسلهم وأنبيائهم، والاعتبار بها.

ه ــ تمييز الأعمال والأحوال التي ترضي الله تعالى وتقرب إليه، من تلك التي تسخطه وتبعد عنه.

و ــ تجديد النظر إلى حياة الإنسان الدنيوية على ضوء الوحي، مما يعطي هذه الحياة أبعادا أخرى لم تكن مدركة للعقل المجرد.

4 . آفات النفس:

النفس في هذه المرتبة، سائرة من درجة الأمر بالسوء التي قيل فيها:M& ') (L، إلى درجة اللوم التي قيل فيها:M _ ` a b c L[39]. فالسوء الذي ذكرناه سابقا داخل عليها من خلف، وهو أصلها؛ واللوم داخل عليها من أمام، وهي المرتبة التي تلي هذه. لكن قبل الشروع في الحديث عنها، لا بد من الكلام عن بعض آفات النفس ومنها:

ا ــ إعمال الفكر في الأعمال المشروعة والعلوم المكتسبة، وذلك بنيتين:

أولا: بنية الإتقان: فيتكلف الإنسان في هذه الحالة ما لا يكاد يطيق من التدقيق في صور إقامة الأعمال، قد تصل به إلى الوسوسة.

ثانيا: بنية تبين الحقيقة: وهو ما وقع فيه المتكلمون في تعاملهم مع الوحي محاولين في ذلك الوقوع على منطق له، يُسَكّن من ثائرة نفوسهم. فنتج عن ذلك:

نشوء الفرق: وظهور التفرقة، بحسب ما توصل إليه كل صنف من الفكر. هذه التفرقة التي كانت ولا زالت أحد أسباب ضعف الأمة. إذ ما أسهل أن يتسرب التشكيك والإيهام من فرقة إلى فرقة، في هذه المرتبة، حسب قوة الصراع الفكري المحتدم بين هذه وتلك؛ مما يؤدي إلى إضعاف الجميع في النهاية .

فتح باب الضلالات: خصوصا العقدية منها، وذلك بسبب تحكيم الفكر على الوحي. فما وافقه قُبِل، وما غَمُض عليه تُكُلِّف في إثباته، إن لم يرد بكيفية أو بأخرى. كالتأويل البعيد الذي يخرج بالألفاظ عن أصلها الموضوعة له، أو كالجمود على ظاهر اللفظ الذي يخل بالمعنى المقصود للنسق التركيبي الذي يوجد ضمنه اللفظ؛ وإن كان النوع الأول أخطر.

وإن كانت الآفة الأولى أدت إلى ضعف الأمة من حيث ما هي جسد واحد، فإن هذه الثانية تؤدي إلى ضعف في الإيمان ونقص في الإسلام، لمّا كانت منافية لأصلهما الذي هو التصديق والانقياد.

ولا بد هنا أن نلاحظ ما يلي:

ــ أن الدين بطبيعته غيب وشهادة. فالشهادة ما يعلم منه على وجه الإحاطة كالعلم بإقامة الصلاة وشروطها وأركانها مثلا. والغيب هو ما لا يحاط به كتأثير الصلاة في نفس الإنسان على وجه ربط السبب بمسببه.

---

[39] . القيامة : 2 .

ـ أن الإدراكات متفاوتة بين الأشخاص: فما يدركه هذا قد لا يدركه ذاك. وما هو شهادة لهذا قد يكون غيبا لذاك. خذ على ذلك مثلا عاميا مع فقيه، يتبين لك الأمر.

إذا تقرر ما قلناه، علمنا أنه لا منجى للإنسان إلا الانقياد للوحي انقياد المؤمنين حقا، لا انقياد المؤمنين المقيدين بالنظر. لأن هذا النوع الأخير في الحقيقة، إنما هو منقاد لنفسه لا لربه، وحكمه النهائي على الشيء له لا لربه، وهو سوء أدب كبير مع الله تعالى، إن لم يكن أكثر من ذلك.

ظن بلوغ النهاية: وذلك كما يعتقد أغلب العامة إذا أدوا الأركان الخمسة لمرتبة الإسلام، فيعتقدون أن دينهم (تدينهم) قد كمل. وهو خلاف الحق مدلولِ حديث عمر رضي الله عنه الذي أوردناه سابقا. وهم إن سلّموا بالزيادة والترقي، فإنما يحصرونهما في جنس الأعمال التي هي الأركان، أو في العلم بالأحكام وإتقان أبوابه وفنونه. فالتفاوت بين الناس عندهم، إنما هو بحسب الإقلال أو الإكثار من ذلك كله.

وقد أثرت هذه الآفة في الأمة الجمود، حتى أصبح الدين أحيانا صورة لا روح لها، وصارت الأعمال المشروعة غاية في ذاتها، بعد أن كانت وسيلة. وصار همّ أكثر الناس، الإتيان بها بشكل شبه آلي، للتفرغ بعد ذلك للدنيا والانغماس في حلالها وحرامها.

الاعتداد بالعمل والمن به: يحدث هذا للمرء عندما يقوم بأداء الأركان، وأحيانا بأداء القليل منها مع كثرة المخالفة. فيداخله إحساس بأنه قد أدى ما عليه، وأنه أفضل من كثير من خلق الله، وأنه داخل في دائرة الصالحين من الأمة، وأنه يستحق على ذلك العمل الأجر الجزيل عند ربه. وهو ما يدخله في المن على الله. وما وقع من وقع في مثل هذا إلا لظنه أن عمله مخلوق له، وأن قدرته هي المخرجة لذلك العمل من العدم إلى الوجود. وربما إن سألته في ذلك يقول: هو بتوفيق الله و فضله. ولكن ليس كلام اللسان كما استقر في الجَنان. وهو ما يفتح عليه باب الرياء أيضا. ولمثل هؤلاء يقول الله تعالى:M وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ © L[40]، ويقول أيضا:M يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ L[41]، أي هداكم للإيمان الذي هو أصل الإسلام، هذا إن كنتم صادقين في إسلامكم.

فالمنة لله لا لغيره بأي اعتبار شئت.

حب الدنيا: وسبب ذلك قرب إدراك الحياة الدنيا من النفس، وبعد إدراك الآخرة عنها. ورغم انتشار هذه الآفة وعمومها العالم (في العرف) والجاهل، فقد أغفل الناس ذكرها والتحذير منها. وإن حب الدنيا يقيد القلب إلى السفل ويعوقه عن طلب معالي الأمور. بل ويتسبب له في معصية الله ومخالفة أمره من أجل قضاء مآرب زائلة. وهذا ما يناقض الإيمان بالآخرة والعمل لها، اللذين بهما نجاة النفس.

وقد حذر الله عباده من الوقوع في حبال الدنيا بأمثال قوله تعالى:M q r s t u v ׀ x y z { | ׀ ~ تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ L[42]. فمن صرف عمره واهتمامه لها، فهو طفل من حيث الاعتبار العقلي. إذ

---

[40] . الصافات : 96 .
[41] . الحجرات : 17 .
[42] . الأنعام : 32 .

لا يشتغل باللهو واللعب إلا الأطفال. وقال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[43]، وقال عنها أيضا :« الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها». [44]

5 . رجال هذه المرتبة:

رجال هذه المرتبة هم عموم المسلمين، وأئمتها هم الفقهاء (بالمعنى العام) العالمون بأحكام الشرع المبيّنون لها.

6 . الفكر في مرتبة الإسلام:

حتى لا يقول المغرضون إن الإسلام ضد العقل ــ وما يعنون بالعقل إلا الفكر ، لكنهم لا يميزون بين المعاني ــ فسنبين مجال الفكر في هذه المرتبة:

فإضافة إلى تدبير شؤون الحياة العادية، والاشتغال بالعلوم الدنيوية، اللذين أثبتناهما للعقل المجرد، فإن للفكر في مرتبة الإسلام مجالا آخر في وهو:

ا ــ استنباط الأحكام من النصوص الشرعية، ذلك أن النص قد لا يكون واضح الدلالة بالنسبة لجميع الناس، فيحتاج إلى إعمال الفكر بوسائله المعهودة المذكورة في الباب الأول، للتوصل إلى الحكم الشرعي.

ب ــ تنزيل الأحكام المتبيَّنة على الوقائع المختلفة باختلاف الزمان والمكان والحال. مما يجعل الأحكام بحاجة إلى متابعة دائمة، وإعمال للفكر باعتبار كل المتغيرات. وهو ما اختصت به المذاهب الفقهية المعروفة عبر الأزمان، مع قصور كبير في عصرنا الحالي.

ج ــ التصدي للأفكار الفاسدة الواردة على الأمة الإسلامية من قِبل الأمم الأخرى، والعقائد الدخيلة التي قد تشكل خطرا على سلامتها، كما يفعل ذلك كثير من المفكرين في عصرنا ــ عصر العولمة ــ أعانهم الله على ذلك.

د ــ العمل على تنظيم الأمة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، بشكل متوافق مع الإسلام عقيدة وعملا. وهو ما نحتاج إليه كثيرا في عصرنا، الذي ورثنا فيه من المستعمر نُظُما تعارض الإسلام صراحة. مما يجعل المسلم يعيش حالة ازدواج موهنة، بحيث إنه لا يصل إلى نتائج تذكر في حياته، برغم بذل المجهود.

---

[43] . أخرجه مسلم .
[44] . أخرجه الترمذي وحسنه .

الفصل الثالث

إيمان القلب

M 6 7 8 9 : L التغابن: ١١

إذا كانت المرتبة الأولى للعقل هي مرتبة النفس، فإن هذه المرتبة مرتبة القلب، كما أن مرتبة الإيمان هي قلب الدين. فهي بين إسلام وإحسان، بل هي عينهما لكن باعتبارين مختلفين. ثم إن هذا الإيمان الذي نحن بصدده، هو تفصيل الإيمان المجمل الذي ذكرناه سابقا، والذي هو عمدة مرتبة الإسلام.

وهذا التفصيل تجسيد لقرب العبد من ربه. إذ البعد يعطي الإجمال والقرب يعطي التفصيل. هذا الإيمان هو الذي ورد ذكره في قول الله تعالى:M] ^ _ ` a b c d e f g h i j k L[45]. و" لما " التي تفيد الترقب، جعلتنا ندرك أن هذا الإيمان بعد الإسلام، وهو على الحقيقة تحقيق له وترسيخ وتصحيح. وعلى هذا لتفهم قول الله تعالى:M K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [ \ ] ^ _ ` a b c d e f g h L[46]: أي يا أيها الذين آمنوا الإيمان المجمل، آمنوا الإيمان المفصل كما سبق أن ذكرنا.

وبالرجوع إلى الآية السابقة، وإلى حديث عمر رضي الله عنه، الذي أوردناه في أول الباب، يتضح أن لمرتبة الإيمان هذه ستة أركان، هي أصل شعب الإيمان التي تتفرع في الدين جميعه عبر مراتبه الثلاث، والتي أشار إليها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق .»[47]

1. العقل في هذه المرتبة:

بعد أن كان للعقل بابان في مرتبة التجرد، وهما الحواس والفكر، انفتح له في مرتبة الإسلام باب العمل الشرعي الذي يثمر له نورا يزيد في انفساحه كما رأينا. فصار العقل الآن بموجب مرتبة الإيمان مقبلا على أفق جديد، سيزيده قوة في إدراكه الأول، وإدراكا جديدا هو: الوجدان.

---

45 . الحجرات : 14 .
46 . النساء : 136 .
47 . أخرجه الشيخان .

والوجدان: إدراك حسي، لكن لا بالحواس الظاهرة التي تجاوزناها في مرتبة العقل المجرد. بل بحواس باطنة للقلب، كانت شبه معطلة إلى حد الآن.

وقد نبه القرآن إلى هذه الحواس في مواطن كثيرة منها قوله تعالى:M فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ L[48]. فانظر كيف جعل العمى الحقيقي الذي هو عدم الإدراك للقلوب وليس للأبصار الظاهرة. وبهذا فإن الأبصار إن عميت ولم تعم القلوب، فإن ذلك لن يحجب الإنسان عن إدراك الحقيقة، بعكس ما إذا عميت القلوب وصحت الأبصار. ومنها قوله تعالى:M y x w v u t z } { | { ~ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ L[49]، هذا رغم سلا مة حواسهم الظاهرة كما أسلفنا. ومنها قوله تعالى أيضا:M ë مَّن يَسْتَمِعُونَ ì L[50] بآذانهم M أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ ô لَا يَعْقِلُونَ L من حيث قلوبهم M ! " # $ L بأعينهم M & ' (L من حيث الباطن M) * + , L حقيقة ! ..

وقد ذكر هذا الوجدانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله:« ثلاث من كن فيه **وَجَدَ** حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.» [51]

بقي أن نقول: إن هذه الحواس الباطنة التي يتحقق بها الوجد (أو الوجدان أو الوجود)، بالنسبة إلى الحواس الظاهرة، هي كالروح للجسد أو كالمعنى للفظ، كما سنبين فيما يلي:

2 . الحواس الظاهرة والباطنة:

إذا تأملنا الحواس الظاهرة، وجدناها مختلفة المدارك، على ترتيب معين في قرب هذا الإدراك من العقل: فالطفل أول ما يستعمل من حواسه، حاسة اللمس. وهي أعم الحواس بعموم الجلد الجسم كله. وأكثرها مباشرة للمحيط الذي يحيط بالإنسان. ثم تليها حاسة الذوق، وهي أخص منها، وإن كانت تعتمد على المباشرة أيضا. ثم تليها بعد ذلك حاسة الشم. وهي غير مباشرة، أو قل مباشرة لكن على لطافة في هذه المباشرة: لأنها تدرك الغازات الناتجة عن الأجسام (وهي جزء متحول منها) لا الأجسام ذاتها. ثم تلي حاسةَ الشم حاسةُ السمع وهي ألطف منها في الإدراك، لأنها تدرك الأصوات الناتجة عن تأثير الأجسام في الهواء، لا الأجسام ذاتها. ثم تليها حاسة البصر. وهي ألطف الجميع مع عدم مباشرتها للأجسام، إلا ما ينعكس من الضوء المسلط عليها إلى العين.

فانظر التدرج الحاصل في إدراك المحيط عبر الحواس من الكثافة إلى اللطافة.

وإذا رجعنا إلى الحواس الباطنة، وجدنا الوجد العام هو أعم هذه الحواس، ثم يليه الذوق الخاص، ثم يليه الشعور، ثم يليه الفهم، ثم تليه الفراسة.

---

[48] . الحج : 46 .
[49] . النحل : 108 .
[50] . يونس : 42 .
[51] . أخرجه البخاري .

3 . أركان الإيمان:

ا ــ الإيمان بالله:

هذا الإيمان هو إدراك انفعالي لصفة الوجود خاصة، ولباقي الصفات بالتبعية. وهو إن قورن بالإيمان المجمل، كان هذا الثاني منه، كالقول من الفعل لما بينهما من فارق.

ينتج هذا الإدراك الجديد للمرء انجذابا إلى الجناب الأقدس. يخلخله عن الاعتماد على نفسه، ويورثه حال التوكل على ربه في جميع أموره، لِما يشهده من استتباع أحكام الربوبية لأحكام العبودية. وهو ما يناقض الاستقلالية التي كان يظنها لنفسه فيما سبق من المراتب. وقد ذكر القرآن هذه الحال في قوله تعالى:M O N P Q R T U V W X L[52]، أي المؤمنون به. وهذا التوكل أمر منطقي يقبله العقل بسهولة بعد حلوله في هذه المرتبة، بل ويستغرب كيف أنه كان غائبا عنه في ما مضى.

ب ــ الإيمان بالملائكة:

وهي مخلوقات نورية، منها مسخرة وغير مسخرة. وهي على مقامات مختلفة فيما بينها ومتفاوتة. هذه المخلوقات لا تأكل ولا تشرب ولا تتناسل. وهذه كلها صفات نزاهة وتقدس.

والإدراك الانفعالي لهذا الركن، يثمر حال الزهد. للمناسبة التي بين الملائكة والزاهد. فنجد المرء في هذه المرحلة يقلل من التعلق بالأسباب، بسبب ميل نظر قلبه إلى مسببها، ويكتفي منها بما هو ضروري أو يقارب. وذلك نظرا لمتطلبات البشرية ومراعاة لأحكامها.

الزهد المشار إليه هنا يُعقب القلب راحة وطمأنينة بقدر تحرر القلب من العلائق. وهو مضمن قول الله تعالى:M لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ L [53] . وهذا الركن الثاني مرتبط، بل مشروط بسابقه، كما أن ثمرته مشروطة بسابقتها.

ج ــ الإيمان بالكتب:

والكتب ما نزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام من الوحي الإلهي، على وجه العموم والإجمال. والوحي إما إخبار وتعريف وجب قبوله؛ وإما تكليف وجب القيام به وأداؤه.

وبما أن التكليف أمر ونهي، فقد اقتضى القيام به الصبر، لمجاهدة النوازع المخالفة ، الداعية إلى النقيض. فكان حال هذا الركن هو: الصبر.

والصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المخالفة، وصبر على القضاء. والذي يعنينا هنا هو النوعان الأولان. وقد جاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وآله وسلم:« الصوم نصف الصبر »[54]. والصوم لغة: الترك. بقي أن النصف الآخر هو الفعل. وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه في تقسيم الصبر. ثم تأمل

---

[52] . التغابن : 13 .
[53] . الحديد : 23 .
[54] . أخرجه الترمذي وحسنه .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم:« الصبر نصف الإيمان »[55]. وانظر مرتبة حال الصبر من أركان الإيمان ، تجدْها الثالثة. والثلاثة نصف الستة.

د ــ الإيمان بالرسل:

الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم الأمثال البشرية التي ضربها الله للناس. لقوله تعالى في حق سيدنا عيسى عليه السلام:M**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾** L[56]. هؤلاء الأمثال إلى جانب تبليغهم لنا ما أمروا بتبليغه، قد جسدوا التفاعل على الكمال مع الدين (التدين). وظهرت عليهم ثماره على التمام، على تفاوت فيما بينهم في كل ذلك:M " # $ % & ' L[57]. فالكمال الأكمل لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والكمال الذي دونه، لمن سواه من الرسل والأنبياء والوارثين.

والرسل في حقنا نوعان:

ــ رسل بلغنا خبرهم: وجب علينا تجاههم التصديق.

ــ و رسول نتبعه وننتسب إليه صلى الله عليه وآله وسلم، وجب علينا تجاهه التصديق والمتابعة. سواء فيما اختص به صلى الله عليه وآله وسلم من شرع، أو فيما أقره صلى الله عليه وآله وسلم من شرع سابقيه، وهو شرع له أيضا باعتبار تقريره.

ولنعد إلى الخصائص التي للرسل وهي:

التبليغ: لو أرسل الله إلى الناس ملكا مثلا، وبلغ عنه أوامره، وأدرك الناس ووعوا ما بُلّغوا، لبقي مع ذلك جانب يخفى عليهم ويصعب استيعابه، وهو تنزيل تلك الأحكام المبلَّغة على بشرية الإنسان، بكيفية عملية تؤدي إلى القيام بأمر الله على الوجه المراد له سبحانه. ولا يخفى ما في غياب هذا الجانب من عنت لمن يريد سلوك السبيل إلى رب العالمين.

فالرسل بهذه المثابة، كتب عملية تُقرأ. وتأمل بهذا الخصوص قول سيدتنا عائشة رضي الله عنها في حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين قالت: " كان خلقه القرآن "، تعلم أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان نسخة قرآنية خلقية (أي علمية عملية). لأن الأخلاق لها أصل علمي وثمرة عملية. وهذا المعنى الذي ذكرناه في التبليغ، هو الذي أشار إليه قول الله تعالى:M **قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾** L[58]، أي لتحقيق التبليغ على الكمال.

الشهادة: الرسل بهذا الاعتبار كالمَوازين الحية أوالمسطرات المرقمة التي يقيس إليها الناس أنفسهم، حتى يعرفوا مقدار ما بلغوه من الكمال. وهذا الذي ذكرناه معنى من معاني الشهادة التي لهم على أقوامهم و أممهم.

---

[55] . أخرجه أبو نعيم والخطيب بسند حسن .
[56] . الزخرف : 59 .
[57] . البقرة : 253 .
[58] . الإسراء : 95 .

وذلك كما قال الله تعالى:M B C D E L[59]، أي مرجعا ترجعون إليه حتى تعلوموا مـراتبكم ومنازلكم منه.

الشفاعة: والمعنى الذي نقصده بالشفاعة ، زيادة على المعنى الشائع الذي هو طلب العفو والتجاوز والمغفـرة من الرسل لأممهم عند الله تعالى، هو فتح مغاليق طريق السلوك والسيرِ إلـى الله تعـالى، بـسؤاله سـبحانه وتعالى لأتباعهم حتى ينالوا من ثمرات السلوك ما لم تبلغه هممهم ولا أعمالهم.

وتأمل ما في إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام من رحمات مطوية، لا يسع المرء حيالها، إلا شـكر الله على نعمه التي هم أعظمها. حتى أن بعض المفسرين قال في تفسير قول الله تعالى:M a b c d e f g h i j k L[60]، قال : فضل الله ورحمته هو رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسـلم. وهو ما أشرنا إليه.

والشكر الذي هو حال هذا الركن، شكران:

ـ شكر علمي: هو أن يعلم الإنسان أن النعمة من الله وحده.

ـ وشكر عملي: هو الرغبة في الاستزادة من العمل، حبا في مقابلة النعمة بما يناسبها من الطاعة والموافقة.

ه ـ الإيمان باليوم الآخر:

إن الموت الذي كان يقف في وجه الفكر في مرحلة العقل المجرد، والذي لم يكن يجد له تفسيرا، بـل كـان كثيرا ما يتجنب الخوض فيه ويحاول تناسيه؛ صار فيما بعد من المراتب، وبعد توسع آفاق العقـل، يجـد لـه معنى يتماشى والمنطق الإيماني، وترتيبا مناسبا ضمن التسلسل الحياتي للإنسان بمعناه الشامل.

هذا الموت هو الفاصل بين المرحلتين الهامتين من حياة الإنسان: الحياة الدنيوية، والحياة الأخروية: حياتـه الدنيوية التي هي محل التكليف، وحياته الأخروية التي هي محل الجزاء. ويوم الجزاء (يوم الدين) أو يـوم الحساب، هو الحاسم لمصير الإنسان: فإما نعيم مقيم، أوعذاب أليم.

لذلك كان الإدراك الانفعالي لهذا اليوم، يورث حالين: حال رجاء (للنعيم)، وحال خوف (من العـذاب). والخوف والرجاء معا سيمكنان القلب من تمام الاعتدال على الصراط المستقيم، الذي هو سالكه إلى ربـه، إن استويا عنده. كما أنهما من أنفع العلاجات القلبية في الأحوال المختلفة العارضة لها. فهو عندما يرى نفـسه (أي الإنسان) وقد داخله العُجب إن هو أحسن العمل وأجاد، أخرج الخوف وألقاه على تلك الحال، فعاد بـذلك إلى الصحة القلبية والعافية؛ وإن هو ارتكب ما يقنطه أويجعله يدبر عن ربه، أخرج الرجاء فألقاه علـى تلـك الحال، فعاد بذلك إلى استئناف ما كان عليه قبل الوقوع في الزلل.

و ـ الإيمان بالقدر:

---

[59] . البقرة : 143 .
[60] . يونس : 58 .

القدر هو خروج الأشياء من الغيب إلى الشهادة، بحسب ما جرى به القضاء في العلم الإلهي، و بحسب ما ترتبه الحكمة الإلهية. وهو نوعان:

ـ خير: وهو ما لاءم غرض المرء حالا أو مآلا، أو هما معا.

ـ شر: وهو ما خالف الغرض.

والإدراك الوجداني للقدر يثمر للقلب حال التسليم، الذي يريح الإنسان من مصارعة القدر. هذه المصارعة التي لا يخرج منها بطائل، بل على العكس من ذلك، تورثه الهم والغم دون تحقيق مراد. ولسنا هنا بصدد الرد على العقول المجردة التي تنازع فيما نقوله بغير علم، إذ هذه ليست مرتبتها.

ثم نقول إن التسليم إذا استحكم من القلب وصاحبته المحبة، أثمر حالا أعلى، وهو الرضى الذي ذكر في قوله تعالى:M (* + , - L[61]. وهو تمام مرتبة الإيمان، وقمة راحة القلب والاطمئنان:M ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا â ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ L[62]، وكل الأحوال التي عرضنا لها في مرتبة الإيمان هي من قبيل ذكر الله تعالى القلبي الوجداني.

4 . المأخذ الثالث للعقل:

كنا قد عرفنا خلال الباب الأول أن للعقل مأخذين هما: الحواس والفكر، وأرجأنا الحديث عن المأخذ الثالث إلى ما بعد تلك المرحلة، وها قد جاء الأوان لنبين أن المأخذ الثالث للعقل هو: الإلقاء أو الكشف.

ففي مرتبة الإيمان يفتح الله للقلب أبوابا لا يستطيع ولوجها بفكره، ولا استكشافها بحواسه، بل بتعليم من الله له، رحمة منه وفضلا؛ كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى:M وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ L[63]، وكما نبه إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:« إن من أمتي محدّثين ومكلمين، وإن عمر منهم ».[64]

فليس للقلب في هذه المرتبة تَعَمُّلٌ ، بل له القبول لما يفتح الله له. وكفى بأهل هذه المرتبة شرفا، أن يتولى الله تعليمهم. فأين هم ممن يأخذ علمه عن مخلوق مثله!

5 . الأخلاق المنبثقة عن مقامات الإيمان:

من الأخلاق المتفرعة عن الأحوال التي ذكرناها عند الكلام عن أركان الإيمان، على سبيل التنبيه لا الاستيفاء، ما يلي:

حسن الظن بالله، السكينة، العفو، القناعة، الحياء، احتمال الأذى من الغير، الحرص على التزود من التقوى، إمهال الغير و إيجاد الأعذار لهم، عدم المن على الغير، النفور من المخالفات ولزوم الطاعات، عدم الانتصار

---

61 . التوبة : 100 .
62 . الرعد : 28 .
63 . البقرة : 282 .
64 . أخرجه البخاري .

للنفس، عدم المنازعة للغير إلا بأمر شرعي، حب الخير للغير، الحب في الله والبغض فيه، النصيحة ...إلى غير ذلك من الأخلاق.

ولا شك أن من اتصف بهذه الأخلاق، واجد لحلاوة الإيمان التي أشار إليها الحديث النبوي الذي ذكرناه في أول الفصل، وذائق لطعمه كما أبان ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم:« ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، و بالإسلام دينا، و بمحمد رسولا.» [65] . ومن خلال الحديثين المذكورين آنفا، يتضح أن ذوق الطعم هو وجد عام، ووجدان الحلاوة هو ذوق خاص. وإن تأملت شروط الوجد وشروط الذوق المذكورة في الحديثين، تبين لك ما قلناه بمقارنة تلك الشروط إلى بعضها. وذلك مثلا كمقارنة الرضى بالإسلام دينا، مع كراهة أن يعود في الكفر. فلا يخفى أن هذا الثاني متضمن لسابقه وزيادة.

6 . أركان الإسلام في مرتبة الإيمان:

لا شك أن أركان الإسلام ستكتسِب في هذه المرتبة الإيمانية، بُعدا لم يكن لها في البداية. فمن ذلك:

- صارت الشهادة حالية بعد أن كانت مقالية فحسب.

- صارت الصلاة بالخشوع الذي هو روحها، بعد أن كانت صورة فحسب.

- صارت الزكاة تعاملا مع الله تعالى بأدب، بعد أن كانت تعاملا مع العبد بأمر الله فحسب. و صارت أخذا في بذل، بعد أن كانت بذلا فحسب.

- صار الصوم يعم جميع الجوارح بعد أن كان مقتصرا على الشهوتين فحسب.

- صار الحج، حجا إلى الله تعالى بعد أن كان حجا إلى البيت فحسب.

كل هذا العمق، إنما اكتسبته الأعمال من الانفساح الذي طرأ على القلب وانعكس عليها. وهذا هو بعينه ما أشار إليه الحديث النبوي الشريف:«الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان .» [66].

7 . رجال هذه المرتبة:

رجال هذه المرتبة هم المريدون الذين اشتغلوا بعمارة بواطنهم عبر عمليتي التخلية والتحلية: تخلية من الرذائل وتحلية بالفضائل؛ وجاهدوا نفوسهم في سبيل ذلك طامعين في أن يكونوا ممن قال الله تعالى فيهم:M L z y x w v u t s r q p [67]. وأئمة هذه المرتبة هم عامة الصوفية الذين تحققوا بالمقامات المذكورة سابقا، وصاروا دعاة إليها بعد ذلك. وهم أطباء القلوب العالمون بأدوائها وأدويتها.

8 . ضرب مثل:

---

[65] . أخرجه مسلم والترمذي .
[66] . رواه السيوطي في الجامع الصغير ، وابن ماجة في سننه .
[67] . العنكبوت : 69 .

إذا كان سلوك العقل في مرتبة التجرد، كالناظر في الظلمة، وسلوك النفس كالناظر في الظلمة على نور، فإن سلوك القلب كالناظر في وقت السَّحَر. وهو وقت اختلاط النور بالظلمة. فتقلّبه وتردده بين ظلمة ونور أعطاه هذه المرتبة التي ليس بعدها إلا طلوع الشمس، الذي هو منتهى الإدراك العقلي.

9 . آفات هذه المرتبة:

من آفات هذه المرتبة:

ا ــ القناعة بما تحقق من الوجدان وثمرات الإيمان.

ب ــ الركون إلى الكرامات.

ج ــ الانجذاب إلى الباطن انجذابا يخل بالظاهر.

د ــ الاغترار بالإحوال.

ه ــ الشرك الخفي الذي لا زال القلب لم يتخلص منه بعد.

و ــ المبالغة في احتقار النفس بقدر يجعل المرء يَرُدُّ دواعيَ الترقي الباطنية التي تَرِدُ عليه.

ز ــ التراجع أمام البلاء: لارتباطه بهذه المرتبة. وذلك لقول الله تعالى: M s t u v w x y z { | } ~ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ © ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ L[68].

وارتباط البلاء بمرتبة الإيمان ارتباط عضوي. فبما أن الإيمان تصديق، صار لزاما تمحيص دعوى التصديق هذه، هل هي حقيقية أم لا؟ ولا سبيل إلى ذلك إلا بالبلاء الذي هو الاختبار. فبعد البلاء يتبين الصادق من الكاذب، كما ورد في الآية المذكورة سابقا. فإن قلت: كيف رُبط البلاء بعلم الله للصادق والكاذب، وهو العليم بخلقه قبل إيجادهم؟ قلنا: في البلاء:

ــ إفادة للعبد بعلم صدقه أوكذبه في نفسه، أوصدق غيره من كذبه، بعد أن كان جاهلا بأمر نفسه أو بأمر غيره.

ــ لكن في حق الله تعالى، لا يجوز ما ذكرناه في حق العبد. وإنما المراد بالعلم في الآية هو الخبرة التي هي العلم مضافا إلى الذوق أوالتجربة، لا غير. فهو العليم بخلقه قبل خلقهم، الخبير بهم بعد خلقهم:M , - . / 0 1 2 3 L [69] سبحانه وتعالى.

---

[68] . العنكبوت : 2 - 3 .
[69] . الملك : 14 .

الفصل الرابع

إحسان الروح

M إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ L النحل: ١٢٨

الإحسان لغة، هو الإتقان والتجويد. فكان بهذا المعنى إحسانا للإيمان وإتقانا له وتكميلا.

وبالرجوع إلى حديث عمر رضي الله عنه، هو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك. فتبين لمرتبة الإحسان ركنان:

1 . ركنا الإحسان:

ا ــ فإن لم تكن تراه، فإنه يراك: هذا هو الركن الأول وإن تأخر في اللفظ. لأن الأسلوب الذي ورد به الحديث، يوحي بالانتقال من الأعلى إلى الأدنى، باستعمال " فإن لم تكن " التي تفيد التعذر. وهذا الركن بين نفي هو: " فإن لم تكن تراه "، وإثبات هو : " فإنه يراك ". ففيه مقابل لمرتبة الإيمان. وإثباته مقابل لمرتبة العيان. فكان بذلك برزخا بين المرتبتين: مرتبة الإيمان ومرتبة الشهود والعيان.

وحال هذا الركن هو: المراقبة.

والمراقب بين إيمان وعيان: فلا هو مؤمن بغيب وحسب، ولا هو مشاهد. والمراقبة هي عكوف قلب العبد عند باب ربه، لا يبرحه. مع ما يتبع ذلك من أدب وتأهب للاستجابة. ومن داوم قرع الباب، يوشك أن يفتح له، كما قيل. وهذه المراقبة التي تحدثنا عنها تفيد القلب الشعور والفهم الذي هو روح السمع، أوقل هي السمع الحقيقي. وهي إن استحكمت في القلب وتمكنت منه، كانت سببا ــ إن شاء الله تعالى ــ للعبور إلى الركن الثاني الذي هو:

ب ــ أن تعبد الله كأنك تراه:

وهو المشاهدة والعيان. فقد ورد في الحديث الشريف:« ليس الخبر كالمعاينة ». [70]

والمشاهدة للبصيرة (حاسة البصر الباطنة) التي هي روح البصر الظاهر. لكن لا على ترتيب عملية الإبصار العادية أثناء تعاملها مع المبصرات. فإن الله تعالى عزيز، إذا شاء أن يتجلى لعبد من عباده، كان ذلك منه لا من العبد. وهو معنى قوله تعالى:M 5 6 7 8 9 : ; < = > ?

[70] . رواه أحمد والطبراني ، والحاكم وابن حبان .

L[71]. فكما أنه سبحانه لا يدركه فكر، كما رأينا سابقا وفي محله، كذلك لا تدركه حاسة من الحواس، باطنة أو ظاهرة، بل لا يدركه مخلوق من المخلوقات على التحقيق.

ولا بد أن نلاحظ أسلوب التشبيه الذي ورد في اللفظ النبوي باستعمال الكاف، بخلاف الرؤية الأخروية التي ورد ذكرها بغير هذا الأسلوب. فنقول: إن الله تعالى لا يتقيد بصورة. وبما أن الدنيا محل التكليف، والتكليف ابتلاء، نتيجته إما موافقة للحق أو مخالفة؛ وخوفا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الرؤوف الرحيم، على أمته، ومبالغة في النصيحة لها، أورد هنا التشبيه بالرؤية ــ وهو ما عبر عنه أتباعه من أهل الحق بالمشاهدة، أدبا منهم معه صلى الله عليه وآله وسلم، وعلما بحقيقة الأمر ــ أورد هذا التشبيه حتى لا تقيد أمته الله تعالى بصورة معينة، كما فعلت بعض الأمم فضلت بذلك. فإن قلت فما باله صلى الله عليه وآله وسلم لم ينبه على ذلك في رؤية العباد ربهم في الاخرة؟ قلنا:

أولا: لأن الآخرة ليست محل تكليف، فهو لا يخاف على أمته الخطأ هناك.

ثانيا: إن نشأة الآخرة تعطي الإنسان ما لا تعطيه نشأة الدنيا.

وهذا الركن هو إثبات محض ووجود خالص. ذلك أن هذه المرتبة للروح. والروح قد قال فيه الله سبحانه وتعالى:M**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** L[72]. فنسبه إليه . وهو سبحانه الوجود الحق. فكان ما ينسب إليه وجودا لا يخالطه العدم بحال من الأحوال. وفي هذه المرتبة انتفت عن العقل ظلمته الأصلية بطلوع شمس نوره الوجودية. فانكشف له ما لا يحيط به العد، وما تقصر عنه العبارة والحد. فتحقق بدرجة المحبوبية التي ورد فيها : « لا يزال يتقرب العبد إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصربه، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها.» [73]، و كان العبد هنا ممن علمه الله من لدنه علما كما قال تعالى:M Z Y X W] L[74]. وهو علم خاص منه سبحانه وتعالى إلى عبده لا يطلع عليه مخلوق من المخلوقات السماوية أو الأرضية. وهو معصوم من الخطإ، على عكس ما تظنه العامة. ومرجع ظنهم جهلهم بهذه المرتبة. لكن هذا العلم يبقى محلا للتفاوت بين رجال هذه المرتبة. فنجد منهم العالم و الأعلم. فهذا حظهم من الخطإ إن كان هناك خطأ. وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر دليل على ما قلناه لمن تسلح بالإنصاف.

ولا يقولن أحد أن ذلك خاص بالخضر وحده، لأن لله رجالا في كل زمان على شاكلة الخضر من هذا الوجه. ومن سأل أهل الذكر علم ما لم يكن يعلم.

2 . العقل في هذه المرتبة:

يقول الله تعالى:M L K N M L O L[75].

---

[71] . الأنعام : 103 .
[72] . الحجر : 29 .
[73] . حديث قدسي : أخرجه البخاري وأحمد .
[74] . الكهف : 65 .
[75] . النحل : 90 .

فالعدل هنا، هو استواء بين طرفين، وهو للقلب الذي هو بين نور وظلمة.

والإحسان هو لغلبة النور وانفراده. فكان العقل هنا نورا محضا. وهو طلوع الشمس واستواؤها في نهار الروح، بعد ليل النفس وسَحَر القلب اللذين ذكرناهما سابقا.

ولكي تعلم أن الوجود الإنساني بين نور وظلمة، يختلف حكمه باختلاف غلبة أحدهما عليه أو استوائهما، انظر إلى قول الله تعالى (من باب الإشارة):M ! " # L [76]وهي نور في ظهورM $ % & ' L وهو نور في بطونM) (* + L وهو أوان الظهورM , - . / L وهو أوان البطونM 0 1 2 3 L للترقي M 4 5 6 7 L للنزول والابتلاء M 8 9 : ; L للتكليف M < = > ? L للتمييزM@ A B C D L للسعادة والتشريف في المآل E M F G H I L للشقاء في المآل.

جعلنا الله وإياك من أهل النور المحض.

3 . أركان الإسلام في هذه المرتبة:

تبلغ أركان الإسلام عمقا في هذه المرتبة لم تبلغه في سابقتيها، فهي:

- شهادة: عن شهود.
- صلاة: بقرة عين وورود.
- زكاة: للأسرار.
- صوم: عن الأغيار.
- حج: للحضرة مع الأوقات.

4 . آفات هذه المرتبة:

لهذه المرتبة آفتان هما:

- الغفلة العارضة، لا المستحكمة.
- الاستغناء بالله، الذي لا يصح.

5 . رجال هذه المرتبة:

رجال هذه المرتبة هم أهل الله وخاصته. الذين ليس لهم نظر إلا إليه، ولا مقصد إلا إياه. والذين علموا منه سبحانه ما لم يعلمه غيرهم . وأئمتها هم الأكابر من أولياء الله الوارثون لعلم النبوة، القائمون بالله له، الدالون

[76] . الشمس : 1 .

به عليه، المسلمون وجوههم له إلى الأبد، الساجدون له في حضرته من غير رفع، الذين خرجوا من كل قيد في عين القيد، أحباء الله الذين من نظر إليهم ذكر الله.

وليس وراء هذه المرتبة مرتبة تطلب، إلا الزيادة منها. أي الزيادة من العلم بالله سبحانه وتعالى، لقوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم:M 0 1 2 3 4 L[77]. فلم يأمره بالاستزادة من شيء إلا من العلم. فلا نهاية للعلم بالله أبدا، دنيا وأخرى، لأن الله تعالى لا نهاية له: M﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ L[78].

[77] . طه : 114 .
[78] . الإسراء : 85 .

الفصل الخامس

الترقي في المراتب

1 . العقل والدين:

إذا نظرنا إلى العلاقة بين الدين والعقل، وجدنا أن كلا منهما يكمل صاحبه. فالعقل بدون دين قاصر، والدين بدون عقل باطل. لذلك كان العقل شرطا كما هو معلوم في التكليف، وكان الدين شرطا للعقل في التعريف.

2 . عبودية الإنسان:

قد يتوهم البعض أننا عندما تكلمنا في الإحسان، كنا نقصد رفع العبودية عن الإنسان، بما أشرنا إليه من النور المحض والوجود التام. وهو غير الحقيقة التي نرمي إليها. ذلك أن العبودية مقابل الربوبية. وأحكامها مقابل أحكامها. فلا سبيل إلى رفعها البتة. وإلا لما تميزت

المرتبتان: مرتبة العبودية ومرتبة الربوبية. وكيف يرجى رفعها وهي زينة الإنسان؟ M ! " # $ L [79].

غير أن للعبودية مراتب بموازاة المراتب التي مررنا بها، نذكرها على سبيل الاختصار:

ا ــ في مرتبة العقل المجرد: تكون العبودية قهرية، إذ لا يخرج عن العبودية لله كافر ولا مؤمن. إلا أن هذه العبودية لا تورث الكافر سعادة في المآل.

ب ــ في مرتبة الإسلام: تكون العبودية عبودية ظاهر الإنسان.

ج ــ في مرتبة الإيمان: تكون العبودية عبودية باطن الإنسان.

د ــ في مرتبة الإحسان: تكون العبودية عبودية تحقق. وهي لكلية الإنسان .وهي أيضا ما سماه البعض عُبودَة.

3 . العلم:

[79] . الإسراء : 1 .

العلم هو إدراك الأشياء (المعلومات) على ما هي عليه في الحقيقة. وهو صفة إلهية يُفيض منها على من يشاء من عباده بما يشاء:

M﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ L[80].

والأصل في العبد الجهل المحض. لأنه عدم العلم ، فهو مناسب لأصله. وإلى هذا المعنى الإشارة بقول الله تعالى:M 8 9 : ; > = L[81]: الله يعلم لأن العلم صفة وجود، وأنتم لا تعلمون لأنكم عدم على التحقيق. هذا بالأصالة، ولكن لما أراد الله تعالى أن يظهر جوده وفضله على الإنسان علَّمه:M ^ _ b a ` c L[82]. وإلى علم الإنسان، الإشارة بقوله سبحانه:M﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ L[83]: أولا: العلم أوتيه وليس له. ثانيا: مهما بلغ هذا العلم ــ وإن كان الإنسان أعلم بني جنسه ــ فلن يوصف إلا بالقلة. ذلك أننا لو نسبناه إلى العلم الإلهي غير المتناهي، لكانت هذه النسبة نسبة محدود إلى غير محدود. وهي كما يعبر عن ذلك الرياضيون: مقاربة للصفر، أو غير معتبرة. وهذا بعينه معنى القلة المذكورة في الآية.

إذا علم الإنسان هذا، فإنه لن يغتر بعلمه أبدا. وسوف يكون جهله الأصلي هو المشهود له. وذلك ما يحقق عبوديته ويرسخ قدمه فيها.

مراتب العلم حسب مراتب العقل:

إذا كان العقل بمختلف مراتبه وتسمياته هو محل العلم، فلا يخفى ما بينهما من تلازم صعودا ونزولا:

المرتبة الأولى (العقل المجرد): العلوم التي يمكن للعقل اكتسابها، هي العلوم المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا. سواء كانت تجريبية أو نظرية بحتا أو مهارية.

المرتبة الثانية (الإسلام): إلى جانب العلوم المتعلقة بالمرتبة الأولى، يمكن للعقل اكتساب ما يسمى بالعلوم السمعية أو النقلية التي يأخذها عن الرسل عليهم الصلاة والسلام.

المرتبة الثالثة (الإيمان): إلى جانب العلوم التي اكتسبها العقل في المرتبتين الأوليين، يكون القلب مؤهلا ــ إن شاء الله تعالى ــ لقبول علوم وهبية ليس له فيها تعمل. بل له فيها تهيؤ وقبول فقط. وهي ما يسمى علوم الكشف، التي هي نتائج الإيمان العلمية. يجدها أصحابها في قلوبهم واضحة بينة، فتقبلها عقولهم بمنطق هذه المرتبة. لكن العقول التي دونها، تردها غالبا، وتُنكرها على أصحابها أشد الإنكار.

المرتبة الرابعة (الإحسان):إلى جانب كل العلوم السابقة، يختص العقل هنا (الروح) بالعلم اللدني الذي سبق أن تكلمنا عنه بإيجاز.

فظهر مما سبق أن العلم علمان: علم كسبي وعلم وهبي. والعلم الكسبي نوعان:

---

[80] . النساء : 113 .
[81] . البقرة : 216 .
[82] . العلق : 5 .
[83] . الإسراء : 85 .

ـ دنيوي: وهي العلوم التي لا تتجاوز الدنيا في مراميها، سواء كانت دنيوية بالأصل أم أخروية.

ـ وأخروي: وهي العلوم الشرعية بأنواعها، بالأصالة؛ والعلوم الدنيوية التي تراد بها الآخرة بالنية والاعتبار.

والعلم الوهبي أيضا نوعان: كشفي ولدني.

وقد جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:« العلم علمان: علم على اللسان، فذلك حجة الله تعالى على خلقه؛ وعلم في القلب، فذلك العلم النافع .»[84] ، نفهم منه عادة ، أن العلم المستقر في القلب المتيقن، أنفع من العلم الذي يتكلم به المرء دون أن يكون له أصل في باطنه. وهذا معنى من معاني الحديث يحمل عليه. أما المعنى الذي نريده نحن هنا فهو:

إن علم اللسان هو العلم الكسبي الذي ينتقل من واحد إلى آخر ويلقن بواسطة اللسان بالدرجة الأولى، أو ما ناب عنه كالكتابة بالدرجة الثانية. وهذه العلوم كما قلنا سابقا عقلية ونقلية. وهي حجة الله على الخلق . والحجة لا تكون إلا فيما يحتمل النفي والإثبات. وهي بالتالي، إما لهم أو عليهم. فالعلوم العقلية حجة للإنسان، إن هي أوصلته إلى باب الإيمان، وإن استعملها للخير. وهي حجة عليه إن أدت به إلى عكس ذلك.

فانظر ما أعدل الله! كيف لا يأخذ الإنسان إلا بنفسه! M { ~ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ L[85].

والعلوم النقلية التي يأخذها الخلق عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، حجة لهم إن هم حكموها في نفوسهم وعملوا بمقتضاها. وهي عليهم إن هم أهملوها وخالفوها واتبعوا أهواءهم دونها.

أما العلم الثاني الذي هو في القلب: فهو العلم الوهبي الذي ينبع من القلب ولا يأتي من الخارج. وهذا الصنف من العلوم جعله صلى الله عليه وآله وسلم نفعا محضا لا يقبل احتمال النقيض. وذلك لشرف نسبته وعلو مرتبته عند الله تعالى.

وترتيب العلوم لا بد أن يتبينه العقل إن كان يريد السلوك إلى الحق، والترقي في معارج الكمال. وإلا فسيكون طُعمة سهلة للشياطين الذين يحترفون التلبيس والإيهام. وما أشد تعرض العقول غير المؤيَّدة من الله إلى ذلك؛ خصوصا فيما يتعلق بالفكر.

4 . تحقيق الترقي:

إذا عرفنا مراتب العقل ومنازله، وجب علينا تبيين الشروط التي يتحقق بها الترقي من مرتبة إلى مرتبة، وذلك كما يأتي:

ا ـ اتخاذ الإسلام دينا: إن من المغالطات التي بدأت تتسرب إلى الأمة، كون الإسلام دينا من ضمن عدة أديان، تتشابه في أكثر الوجوه وتختلف عن بعضها في جزئيات منها فحسب. وكأن الإنسان له أن يختار من بينها ما يوافق ميوله ونزعاته، كما يفعل عند اختيار الألبسة أوالمأكولات من السوق. فنقول: إن العقل مخلوق

---

[84] . أخرجه الترمذي بإسناد صحيح .
[85] . الإسراء : 14 .

لله تعالى، أمْرُه بيده كما هو أمر كل شيء. وترقي العقل إنما يكون بإذن من الله، حتى لا يظن العقل أنه الرب. ويكون هذا الترقي عبر سبيل شرعها الله تعالى وبينها، وبأسباب حددها. يتضح من خلالها كما قلنا فقر العقل الأصلي إلى ربه. قال الله تعالى:M ? @ A B C D E F G H I J K L L[86]. يتبين من هذا أن الإنسان ملزم باتباع الدين الحق حتى يفتح له باب الترقي. وإلا فسيكون كمن يغربل الماء: في تعب دون نتيجة. فإن قيل إن الأديان السماوية هي من عند الله، فهي أيضا سبيل للترقي. قلنا: ليس للعقل (من حيث ما هوعبد) أن يحدد السبيل. وإنما ذلك لربه، ولربه أن يُحْدِثَ في هذه السبيل ما شاء من التغيير (النسخ والتبديل)، لملكه الأمر وهيمنته عليه: M لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ L[87]. وجدوى دين من الأديان وصحته، ليست للدين ذاتية، بل هي بإذن من الله. فإن رفع الله إذنه من دين (شريعة) ما، لم يعد ذلك الدين سبيلا موصلة إلى الله. كل هذا ليعلم العقل أنه ليس له من الأمر شيء، وليفتقر كي يعطى.

فإن قيل: إذن فقد فَقَدَ العقل الإنساني هذا الامتحان الذي هو اختلاف التشريع بثبوت واستمرار الدين الخاتِم؟ قلنا بل هو في أثنائه وطيّه. ذلك أن النسخ وارد على هذا الدين (الشريعة) أيضا في بعض جزئياته. كما أن لله في النهاية أن يقبل أوأن يرد عمل العبد، لأن الشرع حاكم على العبد لا على الله سبحانه. وهي مسألة تغيب عن أغلب الناس. فإن قال القائل: كان هذا ممكنا مع الشرائع المنسوخة السابقة ولم يكن من داع إلى نسخ بشريعة خاتمة؟ قلنا: ذلك لو كانت الشرائع السابقة كاملة. أما وهي غير ذلك، فلا بد من سير الدين نحو درجة الكمال التي بلغها بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، كما بيّنّا ذلك فيما سبق.

فلم يبق إذن امام العقل الإنساني من باب، إلا باب الإسلام المحمدي. وأما الأديان الأخرى سواء كانت سماوية أم وضعية فهي باطلة، على تفاوت بينها. إذ لا يستوي ما وضعه الله مع ما وضعه العبد. وهو ما بينه الكتاب والسنة في غير ما موضع.

ب ــ اتخاذ القدوة (الشيخ): الشيخ رجل خَبَرَ طريق الترقي، وسبق له أن سلكه. فهو يعلم حق العلم مواطنه ومسالكه، ويميز آمنه ومُهلكه.

والشيخ دال على مراتب الترقي بالنيابة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لا بالأصالة. فهو ملزم إلزاما تاما باتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، في كل شيء. والشيخ المعتبر هنا، والذي نقصده، هو الشيخ الحي المتواجد في الدار الدنيا إلى جنب السالك. ذلك حتى تتحقق المباشرة والمعاشرة، اللتان تثمران للسالك ما لا يثمره غيرهما، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« المؤمن مرآة أخيه » [88] . وفائدة المرآة أنها تبين للإنسان من نفسه ما لا يظهر له بدونها. فيعرف نفسه على التفصيل، ويميز من نفسه بين اليمين والشمال، والفوق والتحت . وأكمل مرآة على الإطلاق، مرآة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، باعتباره أول المومنين رتبة لا زمنا. لكن وبما أن هذه المرآة غابت عن شهود السالك الحسي، أجاز له الشرع أن يعرض نفسه على مرآة جزئية (الشيخ) ــ أكمل منه ــ يعرف منها ما يساعده على التقدم في السلوك.

---

[86] . آل عمران : 85 .
[87] . الأنبياء : 23 .
[88] . من حديث أخرجه أبو داود عن أبي هريرة في سننه .

فإن قال قائل: يكفيني الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قلنا: بل الاقتداء لا يكون إلا به صلى الله عليه وآله وسلم. لكن لهذه القدوة فرع في الشيوخ رحمة من الله بالناس الذين:

ـ لا يتصلون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يكون هو المفتيَ لهم فيما يعرض لهم في تفاصيل السلوك إفتاء لا عن خبر. لأن الخبر قد ينزّل على غير وجهه.

ـ لم يتخلصوا من سلطان نفوسهم وأهوائهم، فيلتبس عليهم التوجيه النبوي الخبري. فيسلكون به غير المسلك الصحيح، فيضلون على علم.

فإذا تبينت مرتبة المشيخة للقارئ، نمر إلى تفصيل مراتبها حسب مراتب الإدراك العقلي التي سبقت:

مراتب المشيخة:

أولا: في مرتبة العقل المجرد، يكون الشيخ من العقلاء النظار، الذين يعرفون مسالك الفكر، ويميزون سليمه من سقيمه.

ثانيا: في مرتبة الإسلام، من مراتب العقل المعضد، يكون الشيخ من علماء الشرع، العالمين بأحكامه، المبينين لها. لا من الذين يتبعون السياسات المخالفة ويمررونها للناس.

ثالثا: في مرتبة الإيمان، يكون الشيخ من فقهاء القلوب، العالمين بأمراضها وعلاجاتها، المتحققين بما يطلق عليه تصوف الظاهر (أي ظاهر القلب).

رابعا: في مرتبة الإحسان، لا بد للشيخ أن يكون ممن تحقق بربه، وصار الله سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله، بمقتضى الحديث القدسي الذي مر ذكره. وهذا ما يطلق عليه: تصوف الباطن.

غير أنه بسبب جهل جل العقول لمراتب العقل على التفصيل، فإنها قد تقر ببعض أنواع المشيخة دون البعض المتبقي. وذلك كتسليم العامة بمرتبة المشيخة في العلوم الشرعية، وإنكارهم لها في مجال التربية القلبية. مع أن سبب إنكارهم لها في الأخيرة، يسقط إقرارهم بها في الأولى لو تفطنوا. وبيان ذلك أنهم يقولون: إن إثبات مرتبة المشيخة التي يقول بها الصوفية، هو إثبات للواسطة بين العبد وربه. وهو قدح في التوحيد عندهم. وردنا عليهم، هو أن إثبات الواسطة في أخذ أحكام الدين عن علماء الشرع، هو أيضا إثبات للواسطة بين العبد وربه في هذه المرتبة. ذلك أن التشريع والتبيين معا، هما لله ورسوله. وما قام به علماء الشرع من تبيين، إنما هو بإذن من الله ورسوله لا من أنفسهم. فظهر أن الواسطة إن كانت بالإذن، لم يلزم من الاقتداء بها خلل في التوحيد، كما يزعم ذلك بعض من علموا التوحيد العقلي النظري، وغاب عن عقولهم التوحيد الشرعي؛ كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالى خلال الباب الثالث من هذا الكتاب.

ج ـ الزاد:

لا بد للقلب السالك في طريق الله تعالى التي هي الدين، من زاد يتقوى به بعد الله على مشاق السفر، والانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ومن مرتبة إلى مرتبة. وما الزاد الذي يحتاج إليه، إلا التقوى التي قال الله تعالى فيها:M 9 : ; > = < L[89]. و يأتي في المرتبة الأولى منها: أداء الفرائض، ثم بعد ذلك الإكثار من النوافل. ومركز هذه الأعمال ذكر الله تعالى الذي جعله روحا لها كلها. فقال فيه مثلا:M / 0 1 2 L[90]. وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« ما عمل ابن آدم عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع. (ثلاثا). »[91]. وفي هذا الحديث وغيره ما يوحي بأن الذكر روح الأعمال كما قلنا. ولا تستقيم هذه الأعمال إلا به، فهي له كالأواني والظروف. لكن من الذكر ما هو تلاوة على الخصوص، أو ترديد صيغ معينة بكيفية معينة. والمعنيان المذكوران غير متناقضين. ذلك أن الذكر يبدأعادة بالظاهر، وأَخَصُّ عضو به في الظاهر اللسان. وهو المرتبة الأولى منه. وهي التي تناسب مرتبة الإسلام. ثم ينتقل العبد إلى ذكر القلب: وهو حصول معنى الذكر له. وهي المرتبة الثانية الموازية لمرتبة الإيمان. ثم ينتقل إلى مرتبة ذكر الروح أوالسر. وهي المرتبة الثالثة الموازية لمرتبة الإحسان.

5 . خلاصة:

لقد من الله على العقل الإنساني بأن أخذ بيده وأخرجه من ظلمات نفسه إلى نور ربه. ولولا هدايته سبحانه وتعالى ما اهتدى أحد من عباده إليه: M**وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ** L[92]. فالباب مفتوح لمن شاء أن يحقق درجة إنسانيته، ويرقى عن حيوانيته التي تهوي به أسفل سافلين:M = > ? [Y X W V U T S R Q P O M L K J I H G F E D C B A \ [^ _ ` L[93].

---

[89] . البقرة : 197 .
[90] . طه : 14 .
[91] . أخرجه الطبراني غي الكبير وابن أبي شيبة في مصنفه ، ورجاله رجال الصحيح .
[92] . الأعراف : 43 .
[93] . الإنسان : 29 - 31 .

الباب الثالث

شبهات العقل لدى الأمة

الفصل الأول

المثبطات

1 . الحالة العامة:

إن أمة الإسلام قد تعرضت لعوامل عديدة، أثرت فيها، وجعلتها تضعف وتقعد عن الأخذ بأسباب قوتها التي بينها الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن هذه العوامل:

ا ــ الفتن: هذه الفتن التي بدأت الأمة تقع تحت وطأتها بُعيد عصر النبوة مباشرة. وصارت تلك الفتن تقوى وتقوى إلى أن بلغت حدا عصف بإيمان كثير من أبناء المسلمين. ونُرجع أصول هذه الفتن إلى:

ــ ميل القلوب إلى الدنيا. وهو ما يحجبها عن الآخرة، وما يوصل إليها من صالح الأحوال والأعمال.

ــ ظهور التيارات السياسية الرامية إلى التحكم في المسلمين بحق أوبغير حق.

ــ تعرض الأمة للاستعمار من قبل الكفار، الذين خلّفوا وراءهم بصمات في وجدانها لا تتماشى مع الأصول الإسلامية. مما أوجد انفصاما لديها أقعدها عن الحركة، أوعلى الأقل، قلل من قدرتها عليها كثيرا.

ب ــ طول العهد بالنبوة: مع مرور السنين، بدأت الأمة تفقد اتصالها بمصادر دينها على الوجه الذي ينبغي أن يكون عليه هذا الاتصال الذي يحفظ لها استمرارية استمدادها من نور النبوة، ويكفل لها مَنَعة ضد تشويش المغرضين. وبدل ذلك، طغى عليها التعامل التاريخي مع الدين. مما جعل هذا الدين تراثا تاريخيا، يحافظ عليه المسلمون حفاظا يوازي أويكاد، حفاظ كل أمة على مقدساتها الموروثة عن سلفها.

ولم يسلم من هذه الحالة إلا قلة من أبناء الأمة الإسلامية، ظلت على العهود الأولى، ولم تتأثر بمتغيرات الزمان أو المكان، أو العوامل الداخلية أو الخارجية، عناية من الله بها، وإبقاء منه تعالى لهذا الدين على حال طراوته وجدته. وكأن الزمان غير موجود، أو كأن هؤلاء خارج الزمن.

إلى هذه الطائفة يشير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:« لن تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله .» [94]

وبسبب انحجاب أغلبية الأمة عن الأخذ من مصدريها الأساسين (الكتاب والسنة) الأخذ الصحيح رغم تداولهما بكيفية لم تكن للأولين؛ ظهرت في الأمة الانحرافات التي أصابت سابقاتها من الأمم، بعد انتقال رسلهم عليهم الصلاة والسلام. ومن ذلك:

---

[94] . أخرجه الشيخان .

ـ التمسك بظاهر الدين ورسومه دون روحه ولبه، والتعصب لهذا الظاهر إلى حد ظهور الفُرقة في الأمة الواحدة.

ـ طلب العلوم الدينية لأغراض دنيوية، مما أفقدها مهمتها الأصلية التي هي الدلالة على طريق الحق.

ـ اتخاذ الدين نفسه مطية إلى الدنيا بعد أن كان وسيلة للتقرب إلى الله والفوز في الآخرة.

ـ اتخاذ النفوس الضعيفة حملةَ العلم الغافلين سندا وحجة للانغماس في ملذات الدنيا، وأحيانا للانحراف عن الحق؛ ظنا منهم أن ذلك ينفعهم عند الله يوم الحساب.

ـ الإنكار على الطائفة المتمسكة بالحق، حتى تصفو الحال لطالبي الدنيا وأعراضها الزائلة.

2 . المثبطات:

ا ـ *السياسة:* لقد أصابت الأمة عدوى السياسة بالمعنى الاصطلاحي الحالي. وهو تصور للحكم يُعمل على تحقيقه وفق استراتيجيا معينة يحددها الإطار المنظم، سواء كان حزبا ذا خلفية إديولوجية أوغيره. ونقول إن هذا النوع من السياسة عدوى، لأن السياسة التي تعرفها الأمة في الأصل، هي تدبير الشؤون العامة للمجتمع المسلم وفق ما أنزل الله. لا يُترك فيه للإنسان مجال للاجتهاد، إلا فيما يتعلق بكيفية تحقيق هذه الغاية؛ حسب المتغيرات أوترتيب الأولويات حسب المستجدات. لكن السياسة الوافدة أوالمخلفة من قبل المستعمر، جعلت كثيرا من أبناء الأمة ينساقون وراء إديولوجيات (مذاهب فكرية) ذات أصل كافر غالبا. وهو ما جعل هؤلاء يصطدمون بالدين كثيرا: إما من حيث ما هو عقيدة أومن حيث ما هو تشريع. أدى بهم أحيانا هذا الاصطدام إلى الانتصار للمذهب الفكري على حساب الدين، الذي يجهلونه وينظرون إليه من خلال نظّارات أئمة المذهب الذي يتبعونه، بدون أي إنصاف علمي، يجعلهم على الأقل يتبينون ما يخوضون فيه.

وبعد انهيار قلعة الشيوعية في العالم، وتطبيل وتزمير الغرب لنموذجه الديموقراطي ذي الأصل الإغريقي، مال المتسيسون من أبناء الأمة حيث تميل الرياح. حتى أنهم صاروا يبحثون للإسلام عن نقط التقاء مع الديموقراطيا، كي ينافَح عنها و يدافَع باسم الشرع. هذا الشرع الذي كان يجب أن يكون عندهم أعلى، وكان يجب أن يُسعى إليه بدل أن يسعى به إلى غيره.

والديموقراطيا التي تعني حكم الشعب، تتنافى مع الإسلام في أصل وضعها. ذلك أنه في الإسلام لا حكم إلا لله:M ~ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ L[95](بجميع معاني الحكم). فمن احتكم إلى الشعب، فقد جعل الشعب إلها اعتباريا، يشرع ويسن، يثيب ويعاقب.

يونان معذورون إن هم بحثوا لأنفسهم عن نظام، تستقيم به أحوالهم، على قدر ما تيسر لهم. لكنْ، مسلمون وديموقراطيون، فهذا ما يحتاج إلى نظر!

عيوب الديموقراطيا:

---

[95] . الأنعام : 57 .

أولا: الاحتكام إلى غير الله (غير الكتاب والسنة) كما أسلفنا.

ثانيا: الحكم بحسب الأغلبية. فإن كان أغلب الناس فاسدين مفسدين، أخرجوا لنا من بينهم ممن هو على شاكلتهم، من يحكم أمة الإسلام. وما ينتجه هذا النوع من الحكم، هو نفس ما ينتجه حكم ذئاب لقطيع من الخراف.

ثالثا: اكتساب المنتخبين من قبل الأغلبية شرعية ما، تمنحهم حصانة ، توفر لهم الظروف المناسبة للاستجابة لنزواتهم وانحرافاتهم. أحيانا على مرأى ومسمع من الناس، مما يزيد الأمة فسادا على فساد.

رابعا: توفير فرص التكافؤ لجميع الأصناف (نظريا على الأقل)، حسب المبدإ الديموقراطي. وهو ما يعطي الشر حق التواجد إلى جانب الخير، إن لم يكن أحيانا كثيرة على حسابه. ونعني بالشر كل ما من شأنه الإضرار بالإنسان دنيا أو أخرى.

خامسا: انقسام الأمة إلى أحزاب متناحرة متصارعة، وهو ما يضعفها ويخالف أصل الوحدة الذي أسسه لها دينها. ولا يُغوينك ما تسمعه عن التعددية التي نفهم منها نحن الاختلاف، فإنها غير ما نحن بصدده. ولعلنا نتطرق إليها في أحد كتبنا، إن قدّر الله ذلك.

وانظر كيف أنه رغم هذه العيوب البينة، صار كثير من الناس يدعون لهذا المذهب. ومنهم علماء للشرع، كان الأجدر بهم التحذير من مغبة الوقوع فيه. أم أننا لن نتراجع عن ذلك ــ كما هي عادتنا ــ حتى يتراجع غيرنا، بعد أن يستنفدوا أغراض هذا المذهب التي وضع لها، ويجدوا مذهبا بديلا يدعوننا إليه مرة أخرى، وينبري للدعوة إليه منا زعماء لنا جدد، وفق شرع جديد؟!

إنه لأمر محزن وشائن، لأمة هي خير أمة أخرجت للناس!

وإن تناولنا للديموقراطيا من حيث ما هي مذهب فكري سياسي، إنما هو من قبيل مقارعة الفكر بالفكر حسب ما يقتضيه موضوع الكتاب، لا من منظورسياسي مخالف من طرفنا.

وغير خفي، أن أناسا ألزموا أنفسهم التقيد بهذا المذهب ــ عقيدة وعملا ــ لن يتمكنوا من الترقي في المراقي الإيمانية، التي هدى الله العقل الإنساني إليها، بسبب مجانبتهم الحق. وبالتالي، سيبقون في دركات العقل المجرد، إن هم لم ينزلقوا إلى مرتبة العقل البهيمي. فما أشده من حرمان!

الجماعات الإسلامية:

كثير من الجماعات الإسلامية، ووعيا منها بما أسلفنا، نذروا أنفسهم للتصدي للانحرافات السياسية التي طرأت على الأمة؛ جاعلين من هذا التصدي محور عملهم، إن لم نقل غاية وجودهم. مما حصر الإسلام من منظورهم، غالبا في مذهب سياسي مقابل (إيديولوجيا إسلامية)، جاعلين من الوصول إلى الحكم غاية أولى. وهو ما جعل كثيرا من النفوس التي لم تتطهر بماء الشرع على الترتيب الذي ذكرناه في الباب السابق، تنساق وراء أغراضها باسم الدين. وهو أيضا ما حجبها بدوره عن تحقيق ترقيها هي نفسها في مراتب الدين. فكانت نتيجتها نتيجة من سبقها، وإن اختلف طريقاهما.

ولا بأس هنا أن نبين، أن الحكم وتنظيم الدولة في الإسلام، إنما جعل للحفاظ على الدين؛ أي على فرصة الترقي للعقول البشرية، ميسرة دانية؛ ولم يُجعل الدين عاملا مؤسسا لحكم هو الغاية، كما يعتقد ذلك بعض الناس.

الإنسان هو محور الوجود، وهو المخاطَب للدين. فكيف يُجعل مجرد أداة أووسيلة لتحقيق غايات هي أدنى رتبة منه على كل حال من منظور الترتيب العقلي. هذا لا يُقبل من أي مذهب وضعي، فكيف بمن يعمل باسم الدين؟!

وإننا هنا إذ ندعو إلى مراجعة الجماعات الإسلامية مواقفها، نؤكد على أن من هذه الجماعات من حفظه الله مما ذكرنا. فلا سبيل إلى التعميم إن كنا نريد الإنصاف.

ب ــ *الاقتصاد:*

لا تخفى تبعية أمتنا الإسلامية في اقتصادياتها لغيرها من الأمم. ونحن هنا، لسنا بصدد البحث في الأسباب التي أدت إلى هذه الحال، لأنه لا يدخل ضمن غرض هذا الكتاب؛ ولكن نريد أن ننبه إلى أن الاقتصاد، أو الظروف المادية على عمومها، من توابع الإنسان وليس العكس. وإننا نرى اليوم كيف يُسخر الإنسان الذي كرمه الله تعالى، من أجل بلوغ غاية اقتصادية، يقال إنها من أجله تراد. لكن، ماذا يبقى من ذاك الإنسان، من إنسانيته، عندما يأتي الفتح الاقتصادي؟

إن سلفنا عندما قاموا بهذا الدين، لم يقصدوا من ورائه، في المرتبة الأولى، القضاء على الطبقة البورجوازية القرشية، أوالاستعباد القرشي. ولم يرووا اقتسام الثروات بين سادة مكة وعبيدها. ولم يطمحوا إلى تحسين وضعيتهم التي يحكمها غالبا فقر واسترقاق. بل قاموا بهذا الدين ، ليحققوا في أنفسهم معنى التوحيد الذي جاء به، ويرقَوْا باتِّباعه إلى درجات الإنسانية التي كانت محجوبة عنهم بمقتضى الجاهلية. أرادوا أولا أن يعيدوا للإنسان إنسانيته!

ولما كثر المسلمون وقامت للإسلام دولة، صار إذ ذاك لهذه الدولة نظام اقتصادي، يحفظ تلك الكرامة الإنسانية المحققة من أن تهدر، أو تعاد إلى سابق عهد الجاهلية، تحت حكم مسمى أي اسم من الأسماء.

هذا هو الاقتصاد الاسلامي. اقتصاد للإنسان، لا اقتصاد بالإنسان فحسب!

وإن الأمم المعادية للإسلام، تحاول أن تغرس في نفوس أبناء أمتنا ذاك المفهوم الخاطئ للاقتصاد، بوسائل شتى، قانونية وعملية، لتضمن لنفسها تبعية الأمة لها. تلك التبعية التي تضمن بدورها ضعف الأمة، الذي تأمن هذه الأمم على نفسها معه. تأمن، لأنها تمثل بعدائها للإسلام الدين الحق، عصبة الشر والظلام ، التي لا حياة لها مع الخير والنور.

والمسلم الذي يُفترض فيه أنه طالب آخرة، لا تشده مثل هذه الحبال الواهية إلى الخلف. ولا تحوله عن قبلته الحقيقية ولا عن تحقيق ترقيه في مراتب دينه، الذي هو سبب عزته وكرامته دنيا وأخرى.

ولِتتأكد مما قلناه، انظر إلى تلك الأمم التي تدعي أن لها الإمامة الاقتصادية اليوم، وانظر إلى حال الإنسان فيها وإلى قيمته، رغم الادعاءات الكاذبة بتحقيق حقوقه. وكيف أن ذلك الإنسان ما بقي له من إنسانيته غالبا إلا صورته الظاهرة، التي تعلق بها أنواع متعددة من الأمراض النفسية والخُلقية والجسدية، الجديدة منها مضافة إلى الموروثة.

ج ــ التعليم:

إن التعليم الذي ورثته الأمة عن المستعمر، كان أهم إنجازات ذلك المستعمر، ضمن خططه الاستعمارية متعددة الجبهات. ذلك أن هذا التعليم لن ينقل المعلومات التي يريدها أن تنقل إلى الأمة فحسب، ولكن سيعمل من خلاله على تمرير مناهج تفكيره ونظرته إلى الأمور إليها. حينئذ سيكفى مؤنة التعب في التخطيط والتنفيذ، لأن المتعلمين من أبناء الأمة على منهجه، سيعملون بدله لتحقيق أغراضه. علموا ذلك أم لم يعلموا.

ومما ركز التعليم المستورد على تحقيقه ما يلي:

أولا: تهميش التعليم الديني، وهو أخطر من حذفه. إذ لو حذف لتيقظت غريزة الأمة الدفاعية ــ وهو لا يريدها أن تتيقظ ــ فأدى ذلك التهميش إلى نبذ بعض أبناء الأمة دينهم من تلقاء أنفسهم.

ثانيا: ترسيخ النظرة المادية الدنيوية لدى الأمة من خلال المواد التي تساعد على ذلك، وإن كانت هذه المواد والعلوم خيرا في نفسها. لكن المقصود من ورائها هو قطع علاقة الأمة بالغيب، الذي سيبدو لها مناقضا للواقع ولِما يقتضيه العقل السليم بالمنطق المادي.

ثالثا: فتح العقل المسلم لكل أنواع الفكر والديانات العالمية بدعوى الانفتاح والموضوعية والتحليل العلمي وحق المقارنة. وهو يريد بذلك تشكيك الأمة في دينها وفي حَقِّيَّتِه. فصار بعض من انفعل لهذا التعليم يصنف الإسلام واحدا من ضمن مجموعة أديان عالمية، تكون تراث شعوب معينة، وثقافات مختلفة. فغاب عنهم بذلك المدخل الإيماني الذي هو وحده يستطيع استنقاذهم من مثل هذه العبثية الفكرية.

رابعا: ترسيخ ما يسمى بالعقلانية، بل تقديس العقل (بمفهومهم) ودور الفكر، الذي يجب أن يخضع له كل شيء، بما في ذلك الوحي. وهو أخطر ما توصل إلى تحقيقه المستعمر. فصار كل واحد يعطي لنفسه حق تحليل وتقييم كل شيء، بغض النظر عن كمال عقله أو نقصه، أو عن صحة فكره أو سقمه، صفاء ذهنه أو انطماسه. وهو ما أدى إلى ظهور مذاهب فكرية تدعو أحيانا إلى السخرية أكثر مما تمثل فكرا بالمعنى المعروف.

خامسا: نزع الحياء والأدب من النفوس: بحيث لا يعود تلميذ يحترم معلما، ولا جاهل عالما. فتجد قوما يعارضون عالما أو إماما باستنادهم إلى قلة الحياء والمروءة فقط. الشيء الذي أدى إلى فوضى لا يعرف لها أول من آخر. كما أدى على إحجام بعض من أوتوا العلم عن الخوض في علومهم مخافة إفساد السفهاء عليهم ذلك.

وكان من نتائج هذا النوع من التعليم: تخريج متعلمين برزوا في ميادينهم الدنيوية، وصار منهم من يحكم الأمة في مجاله كالوزراء وغيرهم؛ لكنهم خواء أو يكادون من الإيمان، ومن الأخلاق التي هي زينة الإنسان. لا يحسون بالانتماء الكامل إلى الأمة الإسلامية بقدر ما يحسون بالتبعية للمستعمر في كل شيء: في تفكيرهم، وفي سلوكهم، وفي طريقة عيشهم، وفي كلامهم، و ... هؤلاء صاروا ــ و إن لم يعلموا ــ نوابا ووكلاء لمستعمر الأمس على أمتهم اليوم. فكيف سيرتقي مثل هؤلاء في مراتب الدين؟ أم كيف سيتركون من يريد ذلك يفعل؟

د ــ *تقصير علماء الدين وقصورهم:*

أمام هذه المحن التي كادت تأتي على الأمة، وقف علماء الشرع، وقفة شبه محايدة، إلا قليلا منهم. وقفوا يحللون ويصنفون. وأحيانا يعارضون بأدب وحياء مناسبَيْن لما يجب أن يكون عليه أهل الدين بمنظور الغير. والأمة تأخذ عنهم ــ إلا قليلا منهم ــ دينا شبه ميت، محصورا في عبادات تُكلِّف في تعليمها واستقصاء جزئياتها. وهي تظن (أي الأمة) أن هؤلاء لا يخفى عنهم شيء في الأرض ولا في السماء. وهم (أي العلماء) قانعون بهذا المقام الذي يحتلونه، وهذا الجاه الذي قد يفوق أحيانا جاه السلاطين؛ والذي يستعمله في بعض الأوقات أعداء الأمة بترسيخه والحفاظ عليه، كي يبقى من مثبطاتها، كابحا لمطامحها في ترقيها وتنمية مداركها.

ولا بد هنا، مع احترامنا لهذه الطائفة من الناس ــ كي لا نُنْسب إلى القذف المجاني والكلام على غير هدى ــ أن نبين مرتبة العالِم من غيره:

فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:« رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[96]. يفيد هذا الحديث أن من الناس من هو حامل علم لا عالم. وحمل العلم هو ما يحصله المرء بالتعلم والاكتساب والحفظ. حتى إذا سئل عما تعلم، ذكره على الوجه الذي تعلمه. أما العالم فهو كما قال الإمام مالك رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده. فالعلم إذن، مَلَكة يعطيها الله لمن يشاء. بها يعرف حقائق الأشياء، وبها يميز الكلام ويستخرج مخبوءه. لكن عامة المسلمين لا يميزون بين هؤلاء وأولئك، فوقعوا ضحية لحملة العلم المتعطشين للجاه والدنيا. فانحرفوا بهم عن جادة السبيل، وقعدوا بهم عن الترقي في مراتب الدين. بل شددوا أحيانا عليهم في إنكارها، وعدّوا الخوض فيها من قبيل الشرك تارة، أومن قبيل الفلسفات الدخيلة تارة أخرى. فحَرَمَ هؤلاء الحملة للعلم نفوسهم، وحرموا غيرهم بموقفهم هذا.

أما العلماء بحق، فلم يدخروا جهدا في توضيح المسالك والتحذير من المهالك. ولنا في كل عصر منهم فئة هيأها الله تعالى لذلك. فالحمد لله على ذلك .

ه ــ *المذهب الوهابي أو السلفي:*

المذهب الوهابي، الذي أسسه ابن عبد الوهاب، هو مذهب عقدي لا فقهي. قام في أساسه على محاربة مظاهر الشرك والبدعة عند الأمة. لكن ما وقع فيه، كان أدهى من ذلك بكثير. قد نسلم بدءا منطلقه، خصوصا

[96] . رواه ابن عبد البر و كذا أصحاب السنن و الدارمي و أحمد و صححه ابن حبان و ابن حجر.

إذا علمنا ما يتسلل إلى نفوس العامة من الشرك، وما يكسو أعمالهم من البدعة. لكن أن يصل الأمر إلى اعتبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ساعيَ بريد، جاءنا بالقرآن وذهب (ساعي البريد: الطارش بلهجة بلد ابن عبد الوهاب)، وما علينا نحن بعد ذلك إلا العمل بهذا القرآن بعيدا عن كل صلة وجدانية به صلى الله عليه وآله وسلم، مبنية على التعظيم والتوقير والمحبة؛ فهي الضربة القاضية. وهي بمثابة قطعٍ للحبل السُّرِّي الذي يربط الأمة بنبيها الذي يعلمها ويزكيها، أوَّلَها وآخرَها:M . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F G H I J K L M L[97]. لكن هؤلاء، لما لم يجدوا تعليمه صلى الله عليه وآله وسلم ذوقا، ولم يتزكوا على يديه الشريفتين، ظنوا أن ذلك من قبيل المحال، وعدوا من تكلم به من المجانين والمشركين، رغم صريح الكتاب والسنة. فسدوا بذلك على طائفة من الأمة الباب، وتركوهم خلف الحجاب، لا يستطيعون الترقي في مدارج الإيمان. ونحن نقول لهم:

أولا: إن كان ما تنطلقون منه توحيدا، فاعلموا أن كلمة التوحيد لم يرد بها كتاب ولا سنة. وإن ذكرت في أحاديث معدودة فلأن المعنِيّين كانوا من النصارى القائلين بالتثليث، أوالمشركين من قريش. وهذا ما ينقض عليكم مذهبكم بادعائكم التزامكم السنة. فلوا التزمتم بها ما ابتدعتم اصطلاحا في العقيدة لم ترد به. ولو كان التوحيد كما تفهمون، لكان ينبغي أن يكون أبرز عنصر فيها بالتصريح؛ إلا إن كان عندكم المسلمون في مقام أهل الكتاب والمشركين. فإن قلتم هو معنى مفهوم عبرنا عنه، قلنا: إن هذا بعينه ما تنكرونه على غيركم. فإما أن تسلموا به لغيركم، أو أن تعودوا عنه أنتم أيضا.

وليعلم القارئ أن التوحيد المقصود هو مشتق من اسم الله الواحد، لكن فيه تعمل للعبد يفهم من هذه الصيغة: وهو جعل ما لم يكن واحدا (كثيرا) واحدا. وفيه سوء أدب مع الله تعالى عند العلماء المحققين. فإن الله ما قال وحدوني! ولا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وحدوا الله! بل جاء في القرآن:M فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ L[98]. وM+ , - . / 0 L[99] وأمثالها. وجاء في السنة:« من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .»[100] وأمثاله. والتوحيد الذي ذهبت إليه الوهابية ، توحيد عقلي نظري لا شرعي. وذلك بسبب إعمالهم الفكر في غير مجاله. وهو كما أسلفنا من آفات المرتبة الأولى من الدين التي هي مرتبة الإسلام. أدى بهم هذا الفكر (وهو البدعة حقا) إلى سوء أدب مع الله ورسوله كبير، نرجو الله السلامة.

وجدير بالذكر، أن للتوحيد مراتب مختلفة تتناسب ومراتب الدين التي ذكرناها مرارا: فلمرتبة الإسلام توحيد خاص بها، ولمرتبة الإيمان توحيد يغيب عن سابقتها، ولمرتبة الإحسان توحيد خالص من الشوائب التي تعرض لسابقتيها. وهذا أمر لا يُعرف إلا ذوقا ممن يسر الله له سلوك طريقه.

ثانيا: إن مذهب السلف الذي تدعون، لا يستقيم. لأن السلف ليسوا مصدرا للدين، وإن كانوا مرجعا في بعض أجزائه. وهم على الحقيقة مظهر من مظاهر التفاعل مع الدين (التدين) وتحقيق ثمراته. ولكل زمان مظهر لهذا التفاعل لمن حقق النظر. فإن سلمنا لكم ادعاء مذهب السلف، وجب التسليم لآخر بادعائه مذهب الخلف.

---

[97] . الجمعة : 2 - 3 .
[98] . محمد : 19 .
[99] . الأنبياء : 25 .
[100] . أخرجه أبو داود .

وهو ما لا تقبلونه أنتم ولا يقبله غيركم. فوجب الرجوع إلى مصدرية الدين من حيث ما هو دين لا من حيث ما هومتدينون. وهذا هو الأمر الذي كانت عليه الأمة إبان وحدتها وقبل أن تطرأ الآفات التي أشرنا إليها سابقا.

و ــ ما علق بالتصوف من الانحرافات:

إن التصوف ــ على اختلاف في الاسم ــ هو تحقيق الدين بمراتبه الثلاث. وهو ما لا يختلف فيه عاقلان. وقد قام الصوفية الأخيار على مر العصور بجهد ملحوظ في تجديد إيمان الأمة وتوحيد صفوفها، بما لا ينكره منصف. لكن، وككل المذاهب، فقد انتسب إلى التصوف أناس متشبهون بالصوفية من حيث الظاهر، مجانبون لهم من حيث الباطن. فاستغلوا مجال القول بالكرامات والعلوم الوهبية، التي هي حق في نفسها، واتخذوها مطية لاستغفال السذج من الناس ونهب أموالهم، إلى جانب ترسيخ عقائدهم الفاسدة بينهم.

هذا بالإضافة إلى ما يقع لبعض المريدين من خروج عن صريح العلم والإيمان، في حكاية بعض أقوال أكابر الصوفية دون تحقق. بل بأخذ تلك الأقوال على ظاهرها بما يعطيه فكرهم. خصوصا إن كان شيوخهم الذين سيُقَوِّمونهم قد غادروا الدنيا ــ وهو ما يسمى تصوف التبرك ــ فتظهر إذ ذاك الانحرافات بأنواع عدة، وتطغى العصبية الجهلاء. وهذا يخالف طريق التصوف التي هي أصلا لتحقيق الترقي. فنتج أنْ تخلف هؤلاء عن الترقي، وانحرفوا عن السبيل التي سلكها من ينتسبون إليهم. وذهب المضمون وبقي الشكل كما يحدث غالبا.

هذا النوع من التصوف (تصوف المتصوفة لا الصوفية) جلب على أهل الله المحققين إنكار الأمة إلا قلة. هذا الإنكار الذي رسخه عدم التمحيص وعدم العلم بحقيقة الأمر. وهو ما كان من شأنه أن يشكل مانعا لأغلب المسلمين عن سلوك سبيل الله والوصول إلى العلم بالله، الذي هو اختصاص الصوفية، مع من شاء الله له ذلك من عباده المصطفَيْن.

<u>الحلول والاتحاد:</u>

يكاد " المثقفون " والدارسون يُجمِعون على كون الصوفية قوم يقولون بالاتحاد والحلول. وهو ما أدى بهم إلى تكفير بعض كبار الصوفية، بسبب حمل كلامهم على المعنى المذكور.

والحقيقة أن الصوفية، كلهم، وحتى أصحاب الشطحات منهم، ما قالوا بحلول ولا اتحاد أبدا. ذلك أن الحلول يقتضي حالاّ ومحلولا فيه. والاتحاد يقتضي متحدا ومتحدا به. وكلاهما شرك واضح. وهم (أي الصوفية) من أخص خواص الموحدين. وهذا الشرك لا يليق بمقامهم الرفيع.

غير أن الناظرين في كلامهم، بعقولهم التي لم تتجاوز المرتبة الأولى من الدين غالبا، لم يفهموا مقصدهم بسبب خفائه عنهم. وحملوا كلامهم على ما اعتادوه هم من خلال منطوقهم ومفهومهم. فحكموا عليهم ظلما بفهومهم. ولوأنهم أعْطَوْا تفاضل المراتب حقه، ما تجرأوا على ذلك ولا تكلفوه؛ ولأحسنوا الظن بهم بسبب ما عُرِف عنهم مِن تمسكٍ بالدين ومن شدة حب لله، تكاد لا توجد إلا عندهم.

وإلى علم الصوفية، الذي يخفى عن غيرهم، يشير أبو هريرة رضي الله عنه بقوله:« حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين: فأما أحدهما فبثثته فيكم، وأما الآخر لو بثثته قطع مني هذا البلعوم.»[101]؛ فهل تراه حكم بقطع بلعومه رضي الله عنه من قِبَل سامعيه، إلا لحملهم لفظه الذي لو تلفظ به، على غير مراده؟ أي على غير الحق؟

فما أحوج الصوفية إلى إنصاف!

ومن الناس أيضا من جعل التصوف فلسفة. وما ذلك إلا بسبب غموض معانيه عليهم، أو بسبب استعمال بعض الصوفية بعض المصطلحات الفلسفية. أو بسبب عرضهم لبعض النظريات الفلسفية، وتعرضهم لها بالتحليل والتقييم. فظنوا أن التصوف من نفس جنسها. والحقيقة أن علم التصوف حاوٍ لجميع أنواع العلوم مهيمن عليها؛ لكنه ليس فلسفة، لأن الفلسفة من علوم النظر والفكر، وهو من علوم الوهب.

وإن جامعاتنا بحاجة على مراجعة لتصنيف التصوف لديها وتعريفه، ضمن ما تقدمه من مقررات على ضوء ما يمليه المنهج العلمي الحق.

3 . ترتيب الأمة:

إذا عدنا إلى المثبطات المذكورة آنفا، وإلى جانب كونها عائقا أمام الأمة للارتقاء في الدين على الوجه المشروع، وجدناها تشكل عاملا كبيرا من عوامل التفرقة الذي يمزق الأمة.

فالمستغرب يسخر من الفقيه، والفقيه لا يبالي بالمستغرب ويعتبره كالنافلة. والسلفي يجعل الصوفي مشركا، عليه ان يجدد إسلامه؛ والمتصوف (لا الصوفي) يجعل السلفي منافقا، لا هو مسلم كالمسلمين، ولا كافر كالكافرين. والمشفقون من حال الأمة يحزنون لما يرونه من تصارع الإخوة وتنازعهم مع اشتراكهم في الدين الواحد. ويتمنون لو أن كل واحد سلّم لأخيه جانبه الذي يحسنه ويتقنه. ولو أن كل واحد استعان بأخيه من أجل اكتمال شمولية الإسلام بهم في مظهر معاصر، أحوج ما تكون الأمة إليه اليوم.

فليت المثقف العصري يتعاون مع الفقيه من أجل التوصل إلى التوفيق بين الأصول والمستجدات. وليت السلفي يتعاون مع الصوفي على إقامة الدين ظاهرا وباطنا.

وبما أن الأمة جسد (بالتشبيه النبوي) فلا بد لهذا الجسد إن هو أراد أن يتمكن من القيام بوظائفه الحيوية أن يكون له ترتيب معين، يحفظ له نظامه وتناسقه. فلا الرأس ينزل عن علوه، ولا الرجل تصعد عن سفلها، ولا اليمين يحيد عن يمينه ولا الشمال يصير يمينا.

وباعتبار مراتب الدين التي مرت، لا بد للأمة من الحفاظ على الترتيب المنطقي التالي:

المرتبة الأولى: أو الإمامة، ونعني بها إمامة التربية والتوجيه، لا إمامة الحكم. وهي للمحسنين الذين تحققوا بمقام الإحسان، والذين قال الله على لسانهم:M { ~ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ L[102].

---

[101] . أخرجه البخاري .
[102] . الفرقان : 74 .

المرتبة الثانية: مرتبة المتحققين بمقامات الإيمان، وهم عمدة المعاملة مع الله على قدم الصدق وبذل المجهود.

المرتبة الثالثة: علماء الشرع الذين لم يتحققوا بإحدى المرتبتين السابقتين، وإلا فهم منها. ثم بعد ذلك يأتي عموم المسلمين.

فإن وفقت الأمة، على اختلاف مراتبها، إلى احترام الترتيب المنطقي لها، فلا شك سيصلُح أمرها، ويتحقق لها ما تحقق للسلف الصالح الذين كانوا على هذا المنهاج عاملين، ولحدود المراتب حافظين.

الفصل الثاني

العولمة

1 . العولمة:

إن الذين يسلكون سبيل التلبيس على الأمة، اتخذوا من تطور أجهزة الإعلام والتواصل ذريعة لإقناعها بـــأن تذوب في محيطها العالمي. وما ذلك في الحقيقة إلا بتخليها عن دينها، هذا الدين الـــذي مـــا فتئـــوا يقنعونهـــا بمماثلته لباقي الأديان. وبما أن كل شعب أو أمة، يفترض أنها ستتنازل عن دينها إما كليا أوجزئيا، فما عليهـــا إلا أن تفعل مثلهم حسب ما تمليه " الديموقراطيا " العالمية. ولن تخسر بذلك شيئا كبيرا، بل ستربح الانـــسجام الذي ستحققه مع العالم المعاصر، عالم الكفر والإلحاد على التحقيق، عالم البهيمية والانحطاط ...

إن كانت العولمة قَدَر العالم، فأمتنا أحق بإعلانها والإمامة فيها؛ لأنها صاحبة شريعة عالمية خاتمة لجميـــع الشرائع، ذات دين صالح لكل زمان ومكان؛ قابل للتطور (التجدد) مع مستجدات كل عصر بما يناسبه، دون الخروج عن الأصول الحاكمة لهذا التطور، كما لا تخرج تلك المستجدات من جهتها عن أصول أمهاتها فـــي العصور الخالية.

لأمتنا أبواب الترقي إلى مراتب الكمال مُشْرَعة من دون سواها، بالحجة وبالبرهان! إن كانت البشرية تريـــد تحقيق إنسانيتها والفوز في داريها.

مَن الأجدر بقيادة العالم: الأعمى أم البصير؟ الأعمى الذي لا يعرف ربه ولا يعرف نفسه؟ أم البصير الـــذي يعرف ربه ويعرف نفسه؟

تحدثوا عن عولمة اقتصاد ...

ثم عن نظام عالمي جديد ...

ثم عن " التسامح الديني " ...

و ....

وهم لا يريدون إلا تحويل الأمة الإسلامية عن دينها. إذ لا يُقصد من أجل السرقة والنهب إلا الغنـــي. ومـــا من غنيّ في العالم غنى الأمة الإسلامية لو عَلِمَتْ!

لن تخسر مع العولمة ــ كما يريدونها ــ أمة من الأمم كما تخسر الأمة الإسلامية؛ لأنها ستستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. أما غيرها فربما سيخسرون ماديا إن هم خسروا. لكنهم لن يخرجوا من ظلمـــة إلا إلـــى مثيلتها، ولا من فساد إلا إلى نظيره.

2 . السلام:

من أهداف العولمة المزعومة، تحقيق السلام. السلام العالمي الشامل. ما بقي إلا أن يقـــال بخلـــود العـــالم وجعله جنة أبدية!

إن كلاما كهذا، لا يصدقه الأطفال، فكيف بعقلاء الرجال!

إن السلام في العالم لن يكون إذا كان، إلا على حساب الأمة الإسلامية: فالظلمة لن تـــصالح النـــور إلا إذا انطفأ لأنه ماحيها ومُفْقِدُها عينَها:M ! " # $ % & ' ( ) (+' , - . / 0 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @A B C L[103]. فالسلام الذي يريدونه واضح: هو استـــسلام وإقرار بالتبعية على الدوام. فإن لم نقبل، قيل لنا: أنتم دعاة حرب وإرهابيون. وكأنهم ملائكة لا يعـــصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون. وهم الذين لا يتورعون عن ارتكاب جرائم قد تخجل بعـــض الـــشياطين مـــن التفكير فيها!

نعم، دعاة حرب، على الجهل والظُّلْمة، لإقامة السلام الحق الذي يضمن للإنسان إنسانيته، كيفما كان جنـــسه أودينه أوعرقه (تحت حكم الله). ثم إن السلام الذي يدعون إليه، مخالف للحقيقة التي أنشأ الله تعالى عليهـــا الدنيا، وهي التقابل والتضاد، اللذان يدعوان إلى الصراع الدائم ما دامت هذه الدار. حتى إذا جاء يوم الآخـــرة ووقع الفصل بين المتنازعين، ودخل كل فريـــق داره M p q r s t u v L[104]،حينئـــذ يكـــون السلام لأهل السلام في دار السلام. أما سلام جاهل، من وضع وهم جاهل، يدعو إليه جهال، فباطل لا أســـاس له من العقل، لمن كان له عقل أوابتغى إلى العقل سبيلا.

3 . حقوق الإنسان:

لن نعرض لحقوق الإنسان كما أقرها الميثاق الدولي بندا بندا. فنحن لا نرى لها القيمة التي تـــستأهل ذلـــك. لكن بدل ذلك، نشير إلى أول حق من حقوق الإنسان على الحقيقة، وهو السماح له بتحقيق إنسانيته، والـــذي لا نكاد نجد من يرفع شعاره.

ومن حق الإنسان على أخيه، ومن واجبه على نفسه، أن يسعى إلى الترقي من دركات البهيمية والمادية إلى درجات الإنسانية، حسب ما بيناه خلال هذا الكتاب. ذلك الترقي الذي لن يتمكن له بدون إسلام. ذلك الإســـلام الذي هو بحاجة إلى عرض ــ في عصر العولمة ــ على جميع أفراد الإنسانية بالصورة الصافية الأصـــلية. بعيدا عن المزايدات والديماغوجيات المغرضة. وبعيدا عن التشويهات التي تُلصق به ظلما من قبـــل أعدائـــه، أوتُلحق به جهلا من قبل بعض المسلمين أنفسهم.

---

[103]. البقرة : 120 .
[104]. الشورى : 7 .

من حقوق الإنسان، تعريفه عبوديته لله، وتمكينه من إقامتها على الأسس التي شرعها الله. ومن حقوقه أيضا تحريره عن غير الله، بما في ذلك نفسه، التي تدعوه إلى العاجلة وإلى الحضيض.

من حقوق الإنسان أيضا عدم تقييد العقل الإنساني بأنواع القيود التي رأينا منها بعضها سابقا؛ وعدم الحيلولة دونه والخلوص من سجنه الفكري الموجَّه، إلى آفاق العقل المعضَّد، حتى يعلم ما لم يكن يعلم.

ومن حقوق الإنسان تمكينه من استعمال علمه بما يتطلبه، للوصول إلى ثمـــرات الأخـــلاق والأذواق التـــي تسعده دنيا وأخرى.

هذا إن كان المراد من "حقوق الإنسان " إعطاء الإنسان حقه حقا، وهو ما يحتاج إلى نظر!....

خاتمـــــــــة

لا بد للعقل كي يتبين سبيله، أن يعلم الحكمة من وجوده. وقد بين الله تعالى ذلك في قوله تعالى:M C D E F G H I L[105]. فالعقل خُلق ليعبد الله، لا يستثنى من ذلك عقل من العقول على الإطـــلاق. فمنها ما يعبد طواعية، وهم المسلمون له سبحانه. وهؤلاء لهم السعادة. ومنها ما يعبده كرها، وهـــي العقـــول الجاحدة، الكافرة والمشركة. ولها الشقاء. وانظر قـــول الله تعـــالى:M ? @ A B C D E F G H I K L[106]. و السجود قمة العبادة. فإن خرج المعاندون عن أمر الله، فهم غير خـــارجين عن إرادته سبحانه. فهم على كونهم عبيدا، ما حَرَموا بإبايتهم إلا أنفسهم من السعادة الأبدية، والعياذ بالله.

ومن بين العقول المسلمة لله، اصطفى الله عقولا لم تعقل سواه. وهي أعلى مرتبة للعقلاء. وهم الأنبياء ومن على قدمهم. فلا أعقل من هذا الصنف عند بني آدم . ومن أراد أن يسلك بعقله سبل الكمال، فلا محيد له عـــن الاقتداء بهم،M أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ L[107]. فإذا علمنا هذا، علمنا أن لا أشرف من العقل عند الله، وهو الذي جعله محلا لمعرفته سبحانه. وهذا المعنى هو الذي نبه إليه ابن عباس رضي الله عنهمـــا فـــي تفسير قوله تعالى " إلا ليعبدون " بـــ : إلا ليعرفون. فمعرفة الله على الحقيقة هي أكبر درجات العبوديـــة. إذ كيف يُعبد من لا يُعرف؟!

وبما أن جميع العقول له عابدة، ظهر أن جميع العقول له عارفة، إلا أنها على تفاوت كبير في مراتب هـــذه المعرفة. كما أن من العقول من يعرف ويعلم أنه يعرف، ومنها من يعرف ولا يعلم أنه يعرف. فتبين من هذا أن الحجاب جهل، والجهل عدم.

فسبحان من اختص بعلمه أولي الألباب، واحتجب عن غيرهم بغير حجاب!

وإن التربية أوالتزكية، الهادفة إلى إيصال العقل إلى درجات معرفة الله تعالى، إنما في الحقيقة تعمل علـــى تخليصه من العوائق والعلائق التي تحول دونه والانطلاق إلى غايته.

ومن العوائق ما هو معلوم للعموم، كحب الدنيا والمعاصي، وباقي الصفات المذمومة. ومنها ما يخفى عـــن جل العقول، وهي المحامد التي يقف العقل معها ويتوجه إليها، و يكتفي بها دون الغاية الحقيقية. فيحجبه هـــذا النوع من العوائق عن ربه، الذي لا يرضى أن يشاركه في قلب عبده ســـواه. فـــالنوع الأول هـــو الحجـــب الظلمانية، والنوع الثاني هو الحجب النورانية. والله من وراء ذلك كله، محيط بذلك كله.

---

[105] . الذاريات : 56 .
[106] . الرعد : 15 .
[107] . الأنعام : 90 .

ومن رحمة الله بعباده، أن جعل في كل زمان رجالا، أهّلهم بما يلزم كي يدعوا إليه على بصيرة، في رفق ولطف؛ ويأخذوا بأيدي من شاء الله له الهداية، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

فما أحوج أمتنا، والعالم بأجمعه، إلى الائتمام بهؤلاء !

ولوعلم سجناء الفكر والنظر ما يكسبونه من وراء التلمذة على أيديهم، ما سبقهم إليهم أحد. ولو علم المحبون المشتاقون إلى نور النبوة ما يحرزه هؤلاء منها بالوراثة، لاسترخصوا كل نفيس في سبيل الفوز بسويعات معهم، على بساط الحضور.

وإننا بهذا الكتاب، نرجو أن نكون قد أعطينا نظرة إجمالية للمراتب التي ينزل العقل فيها، في أثناء سلوكه سبيل الترقي. كما نتمنى أن نكون قد أثَرنا بعض النفوس، ورغبناها في تحقيق تلك المراتب، والتحقق بما تتضمنه من المنازل وأسمى المآرب. سائلين الله تعالى للجميع النجاة من الآفات المحدقة بالمسالك، والتجنيب لكل المعاطب والمهالك.

والحمد لله على هدايته ورعايته، حمدا منه بدايته وإليه نهايته. والصلاة والسلام على شمس الهداية الساطعة، سيدنا محمد وآله وصحبه، وعلى كل عبد لله مخلَص.

الفهرس

المواد	الصفحات
مقدمة	**4**
تمهيد	**9**
الباب الأول: العقل المجرد	**12**
الفصل الأول: تعريف العقل	**14**
1 . العقل لغة واصطلاحا.....	**14**
2 . مآخذ العقل	**14**
3 . أسماء العقل.....	**17**
الفصل الثاني: العقل المجرد.....	**20**
1 . صورة مبسطة	**20**
2 . الفكر	**24**
3 . آفات الفكر	**27**
4 . بيان نماذج من الفكر	**28**
5 . خلاصة	**34**
الباب الثاني: العقل المعضد	**36**
الفصل الأول: الإيمان والكفر.....	**38**
1 . الفطرة	**38**
2 . الإيمان أوالكفر	**39**
3 . أسباب الكفر	**42**

4 . رفع للبس **45**

5 . مرتبة الإنسان الكافر **47**

6 . العقل والجنون **50**

الفصل الثاني: إسلام النفس **52**

1 . مرتبة الإسلام **54**

2 . العقل في هذه المرتبة **57**

3 . مدركات النفس **58**

4 . آفات النفس **59**

5 . رجال هذه المرتبة **63**

6 . الفكر في مرتبة الإسلام **64**

الفصل الثالث: إيمان القلب **66**

1 . العقل في هذه المرتبة **67**

2 . الحواس الظاهرة والباطنة **69**

3 . أركان الإيمان **70**

4 . المأخذ الثالث للعقل **78**

5 . الأخلاق المنبثقة **79**

6 . أركان الإسلام في هذه المرتبة **80**

7 . رجال هذه المرتبة **81**

8 . ضرب مثل **82**

9 . آفات هذه المرتبة **82**

الفصل الرابع: إحسان الروح **84**

1 . ركنا الإحسان **84**

2 . العقل في هذه المرتبة **88**

3 . أركان الإسلام في هذه المرتبة **89**

4 . آفات هذه المرتبة **89**

5 . رجال هذه المرتبة **90**

الفصل الخامس: الترقي في المراتب **92**

1 . العقل والدين **92**

2 . عبودية الإنسان **92**

3 . العلم **93**

4 . تحقيق الترقي **98**

5 . خلاصة **104**

الباب الثالث: مثبطات العقل لدى الأمة **106**

الفصل الأول: المثبطات **108**

1 . الحالة العامة **108**

2 . المثبطات **111**

3 . ترتيب الأمة **128**

الفصل الثاني: العولمة **131**

1 . العولمة **131**

2 . السلام **133**

3 . حقوق الإنسان **134**

خاتمة **136**

الفهرس **140**

يلي هذا الكتاب

- **كشف الحُجب الإدراكية.**
- **الكمال والتكميل.**